مَخْرَج للطوارئ

رواية

هالة صلاح الصياد

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

مَخْرَج للطوارئ

رواية

هالة صلاح الصياد/ كاتبة وسينمائية مصرية تعيش في الإسكندرية، تخرجت من كلية الفنون الجميلة عام 2006. صدرت مجموعتها القصصية الأولى "كل نكهات الآيس كريم" عام 2017، وصدرت الثانية "لا تتخل عن أشباحك" يونيو 2021. كتبت وأخرجت الفيلمين القصيرين "شكلها سما" و"درة حلوة"، ترشحت هاله بسيناريو "وادي النمل" للقائمة القصيرة من جائزة ساويرس للأفلام الطويلة 2016.

مَخْرَج للطوارئ

طبعة 2022

رقم الإيداع: 2021/30723

الترقيم الدولي: 978-977-821-239-6

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

WWW.SEFSAFA.NET

sefsafapr@gmail.com

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

مَخْرَج للطوارئ

هالة صلاح الصياد

رواية

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية.
إدارة الشئون الفنية

الصياد، هالة صلاح
مَخْرَج للطوارئ: رواية/ هالة صلاح الصياد،
القاهرة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢١
٢٥٠ ص، ٢٠ سم
تدمك ٦-٢٣٩-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨
١- القصص العربية
أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع: ٢٠٢١/٣٠٧٢٣

الفصل الأول

1

اعتلى فارس السلالم وهو يطرد تدريجيًّا أطراف الانسجام إلى صحوٍ نابع من حذرٍ.

الأمر بسيط، يقنع نفسه. سيفتح باب الشقة ويغلقه على مهلٍ، سيخلع حذاءه ويَنْسَل إلى حجرته، سيبقى فيها قليلًا ثم يخرج إلى الحمَّام في ضجة مُتعمَّدة، فيبدو كأنه كان في حجرته نائمًا منذ وقت طويل. أنعشته الفكرة، وشَدَّ الخُطى إلى باب الشقة يفتحه، ليجدها غارقةً في النور.

في قلب الصالة كانت تقف أخته، يدها على جذعها، بدت غاضبة وتشبه أمه، بل هُيِّئَ له أنها بالفعل أمه.

تجمد في مكانه، دون أن يجرؤ على فتح فِيه ليتساءل. خُيِّل إليه أن فرجةً صغيرة من فمه ستفضح أمره؛ سيسيل منها الدخان كثيفًا إلى أنف أمه.. أخته.

حاول التسلل بعيدًا عن كل هذا النور الذي رسم أمام عينيه دوائرَ صفراء وبيضاء متداخلة.

دعك عينيه ولفَّ جسدَه نحو حجرته، ليجدها أيضًا - ويا

للعجب! - مضاءة. وضع قدمًا أمام الأخرى، ثم أسرع الخُطى. سألته:

- أمَّك فين؟

عرقله السؤالُ، فالتفَّت قدمه على الأخرى، وكاد أن يسقط. لفارس رأس صغير جدًّا بالمقارنة مع طول جسده. تدارك نفسه، ووازَن جسدَه، فلفَّ قميصه المتهدل في نصف دائرة، وبدت حركته كاريكاتورية. كرَّرتْ سؤالَها:

- أُمَّك فين؟

«انتبه للفكرة كنورٍ أُضِيءَ في دوائر شديدة الكثافة من الدخان الرمادي».

- ماما فين فعلًا؟

- أنا اللي باسألك!

- مش فاهم!

- محششِ؟!

- مزنوق!

اعتدل. وازن نفسه وهرع إلى الحمَّام فوجده مغلقًا، انساب عبر الباب صوتُ المياه مع رائحة نفَّاذة للشامبو المخصص لوالده.

- أنتَ أهبل؟

التفت فوجد أخته خلفه ترمقه بنفس نظرة أمه حين تغضب

عليه.

- أنتِ عاوزة مِنّي إيه؟

قالها ممطوطةً ممزوجة برجاءٍ ونُعاسٍ، انكمش جسده الطويل وكأنه سينهار. دقَّ بكفه المنفرج على باب الحمام.

- يا بابا! يلا مزنوق وعاوز أنام!

تقدمت نحوه حتى ألصقت وجهها بوجهه:

- بقولك أمك مش هنا.. فاهم أنت؟

وضربت بكفها على كتفه مرات متتالية، ثم استكملت:

- فاهم ولَّا متوِّه ولَّا محشِّش ولا متنيل على عينك؟

دعك عينه، بدأ يفيق حقًّا، وكأنها فتحت نافذة في رأسه وطردت الدخان كله. قال:

- طيب ما تكلميها على الموبايل يا مروة!

- وأنت مثلًا فاكرني مكلمتهاش؟ متنيل مقفول!

- ما هترجع، يعني هتروح فين؟

قالت، وهي تخبط أعلى جانب رأسه بكفها:

- الساعة واحدة! عارف يعني إيه مترجعش للساعة واحدة؟

خـرج صوتُ ماكـينة الحـلاقة من الحمَّام صـاخبًا، بدا الصوت لمـروة مرحًا بطـريقةٍ مستفـزة، يشبه صفير أبيـها حين يـكون

مزاجه رائقًا. وبدا لفارس مزعجًا، مستمرًّا، وأصفر.

خبط بكفه على الباب:

- ما يلا.. الله!

انسابت رائحة نفاذة لكريم ما بعد الحلاقة، تبعها صوتُ «فِش فِش فِش»، ممزوجًا برائحة عطر والدهما المرتبط بسهراته الطويلة خارج المنزل.

انفتح الباب أخيرًا، كان أبوها بالفعل قد بدأ يُصفِّر بملامح مبتهجة، تقدَّم واثقًا نحو الصالة دون أن يعبأ بوجودهما. نفذ فارس إلى الحمَّام. أغلق الباب وراءه بقوة، وتبعه انغلاق باب الشقة.

بقيَت مروة هكذا في الممر المظلم بين صالة وحمَّام مُضاءين، وحيدة في قلقها. تناهى إليها صوتُ تململ أختها الصغيرة مريم في الحجرة المقابلة للحمَّام، مع صوت انسياب البول من أخيها داخل الحمَّام.

فكرَّتْ أنه بالتأكيد قد لوَّث قاعدة المرحاض، وأن الصغيرة مريم يراودها حلمٌ سيِّئ، وستصحو باكيةً بعد قليل: «يا ماما.. أنتِ لِيه مش هنا؟!»

قُدَّت في مكانها، وكأن غياب أمها سحب منها حتى القدرة على تحديد أين تجلس وماذا تفعل. هل تتناول العشاء؟ هل تنام؟ هل تنظف المطبخ؟

خرج فارس من الحمَّام، وعبر أمامها سريعًا، كأنما ليمنحها أخيرًا القدرة على فعل شيء ما. ذهبت خلفه، ووقفت على باب حجرته، فقابلها بزفرة طويلة. سألته:

- هنعمل إيه؟

- الصباح رباح.

انهارت على الأرض أمام حجرته. لم يسبق لألطاف أن باتت خارج البيت مطلقًا. ماذا لو تعرضت لحادث، كيف ننتظر حتى الصباح؟ صرختْ في وجه لامبالاته، فقفز عند الباب ودفعه نحوها، لكنه اصطدم بجسدها وارتدَّ، فانتصب فوقها بصبرٍ نافد.

- حاسبي.

لم تشعر بشيء، لا بالباب ولا به؛ كانت غائبة تمامًا في دوامات قلق، وتخيُّلاتٍ كابوسية فاضت من عمق حنجرتها، مع كمٍّ هائلٍ من الدموع، وخطٍ أخضر متواصل من الصداع داخل رأسها، في المنتصف تمامًا.

تشعر بعدم القدرة على التوقف، فقط لا تستطيع.

- بقولك حاسبي.. الله!

هرعت الصغيرة مريم من حجرتها إلى حجرة أمها وهي تبكي فزعة. وجدت الحجرة خالية، فتعالى فزعها وجرت مثل صاروخ؛ لتدفن جسدها الصغير في جسد أختها، وقد تحوَّل بكاؤها إلى كلمة واحدة صارخة:

- ماماااا!

زفر فارس، وخبط قدمه بالأرض غاضبًا، وهو ينحني نحو مروة.

- عاجبك كده يا بقرة؟ أهي أختك صحيت. غوروا من هنا بقى وعيطوا بعيد عن خلقتي.

بدا وكأنه يحدِّث الهواء؛ لم يكن يندَى عن جسدها سوى اختلاجات البكاء المنتظمة، منذ ما يقرب من عشر دقائق كاملة.

انحنى ودفعهما بكفيه، فمال جسدها وسقط جانبًا فوق مريم، وأغلق هو بابه.

اعتدلت فزعة من سقوطها فوق جسد الطفلة. كفَّ العواء وبَقِيَ صراخُ الصغيرة، ضمتها بقوة وربتت عليها. أخذت تُقبِّلها، وهي لا تكف عن البكاء.

بكت مريم حتى نامت، وبقيت مروة لا تحرك عينيها عن باب

الشقة. لا تدري متى بالضبط غلبها النوم.

صعدت الشمسُ نافذةً من شباك الحجرة المفتوحة؛ لتكشف عن جسد مروة على الأرض أمام حجرة أخيها، غائبة في حُلم ما. كانت لها ملامح منكمشة، بشعة، كأنها تشاهد شخصًا يُذبَح. وكان ٍ جسد الصغيرة منكمشًا وملتصقًا داخل وعاء جسدها، بين صدرها وقدمها المثنيَّة.

تعالى صريرُ باب الشقة، تتبعه خطوات ثقيلة. ومن الصالة إلى الحجرة، مر الأب ناعسًا، دائخًا، لا يراهما ولا يرى غيرهما. وانساب في فراشه، مثل سائلٍ سقط للتوِّ من كوبٍ واختفى.

اشتدت الشمس فأفاقت مروة، حملت الصغيرةَ، فاستيقظتْ الأخيرة وأنَّتْ. وضعتها مروة على المرحاض، وذهبت مُسرعة نحو حجرة والديها. فتحت الباب، فلم ترَ إلا جسد أبيها مدفونًا تحت الأغطية، فتأوَّهتْ.

جلست بجذعٍ مَحْنيّ على طرف أريكة الصالة في مواجهة الباب، تبحلق فيه بملامح منكمشة وعين لامعة، يهتز جذعها خفيفًا. أصابعها مدفونة في فمها، تضغط عليها بأسنانها.

نادت: مريم «خلَّصت!»

لم تشعر بها مروةُ، كان فيضانًا من الأفكار المخيفة يجتاح عقلها. تناضل لتسكنه. الاحتمالات تتصارع داخله.

نادت : مريم «خلاص!»

لا تسمعها، تحاول الهروب من ذاك النزيف المؤلم داخل عقلها إلى شعور الكزِّ الشديد من أسنانها على لحم أصابعها.

اشتدَّ بكاءُ مريم، فأفاقت مروة وهرولت إليها. أخذت تنظفها، وهي تحتضنها وترجوها أن تسامحها. وضعتها أمام رسوم متحركة، مع كوب لبن وشطيرة.

وتنتظر، لا تستطيع إلا الانتظار.

تنتظر حتى تسقط الشمس، ولا شيء يتحرك ويسأل إلا مريم.

يُفتَح بابٌ. يُغلَق بابٌ. تنساب مياهٌ، مع دخان سجائر. يُفتَح بابٌ. طرقات، يُفتَح باب. همهمة. خطوات. يُغلَق بابٌ، ثم يُفتَح باب.

تناهى إليها الحوار من الممر مقتربًا من الصالة.

- هي كانت رايحة فين؟
- المصبغة!
- مش فاهم!
- المصبغة يا حمار، اللي بيلوِّنوا فيها الهدوم!
- ليه؟
- عطيتها بنطلوناتي الجينز اللي لونها راح عشان تصبغها. أهي خدت البنطلونات وطفشت الولية المهبوشة.

ظهر أخوها أولًا. رآها فأسرع الخُطى نحو الباب. استوقفته فزفر.

- هاعمل لك إيه يا مروة؟ هانزل أقول يا ولاد الحلال يا اللي شاف ألطاف، أمي تخينة حلوة تاهت مننا؟!

سعل أبوها، وضحك ضحكات من حنجرة جافة، ثم تنحنح ليُسلِّكها، واستكمل ضحكًا شاركه فيه فارس.

تصاعد الغضب إلى وجهها أحمر خالصًا، يلوِّن كل شيء: عينيها ووجنتيها وأذنيها.

صمت فارس، ورمقها بنظرة مَن تلقى منحة من الحياة للتوِّ. أشعل سيجارة من مكانه على باب الشقة، تتويجًا لعهد الحرية الجديد. أبعدها بكفه وجذب الباب، واختفى خلفه.

تصاعد من خلف كتفها الدخان، ثم شعرت بأصابع خشنة خلف أذنها ففزعت واستدارت. الأب قصير جدًّا، أقصر منها ومن فارس. يغطي رأسه الصغير شعرٌ أسود كثيف، تركه ينمو حتى كتفه. وجهه طويل ينتهي بذقن أسفلها خصلة شعر طويلة، تبدو مثل مقشَّةٍ خشنة. شنبٌ صغير يغطي على شفتيه الرفيعتين، وخصلة شعر ملفوفة في قبة أعلى رأسه.

ابتسم لها من بين أسنان بنية، وفم تنساب منه أطراف الدخان الأبيض.

ونظر إليها بحنان من عينين سوداوين صغيرتين:

- أمك هترجع، قلقانة كده ليه؟ هَه؟

رفع يده ليداعب شعرها ثم نزلت أصابعه إلى رقبتها، فتراجعت خطوتين للخلف وأبعدت ذراعه. لا تستطيع إخفاء تعبير بالنفور والقرف من ملامحها، قطب ملامحه، وسحب نفسًا طويلًا.

- ده اللي بناخدوه منكم! (نطقها في لحنٍ حزينٍ).

لماذا أشفقت عليه؟ لا تعلم، ولكنها ابتسمت عن إشفاق فتشجَّع، ووضع يده على كتفها.

- هدورلك عليها، هترجع.

انسابت منها دمعة، شعرت بضعفٍ يجتاحها كفيضان، والتقطه هو مثل كلب صيد ماهر، فجذبها وضَمَّها. هرولت الصغيرة نحوهما، ونفذت بينهما في عناق جماعي. ربَتَ بكفه على ظهرها، وانسابت كفه رويدًا حتى ضغطت مؤخرتها في شدة، ونفذت أصابعه إلى فتحة شرجها. فزعت. دفعته عنها. وعاودها الغضب مُكسِبًا جسدها تخشُّبًا وشدة، وعاود الاحمرارُ وجنتيْها وعينيْها. بدت له أقوى منه، قادرة على أذيَّته، فتراجع سريعًا وذهب نحو الباب ففتحه. حين رآها ثابتةً، تشجع، فألقى عليها كلمة:

- أمك إيه وخرا إيه اللي هندوروا عليها؟! أنا قُلت لها رُوحي المصبغة اصبغي بنطلوناتي أزرق وجتتك أبيض، يمكن ساعتها أبُصّ في خِلقتك تاني.

سحب الباب خلفه، وانهارت مروة على الأرض.

أغمضت عينيها، ورأت أوعيةً ضخمة جدًا ممتلئة بالألوان. رأت أمها تخطو نحو وعاءٍ ممتلئ حتى آخره بالأزرق، والسراويل على كتفها؛ تتناول أحدها وتغطسه في اللون مرَّة بعد مرَّة، ثم تسحبه يقطر أزرقَ في بقعٍ دائرية على الأرض، ويصبغ ذراعَها المكشوف. تتحرك به وتُعلِّقه على حبلٍ طويل ممدودٍ خلف الأوعية. تفعل ذلك في السراويل كلها، واحدًا بعد آخر، حتى تنتهي وقد تلوَّنَ جسدُها، وملابسُها وذراعاها، وبقع زرقاء على وجهها.

ثم تقترب من وعاءٍ آخر، ممتلئ بلونٍ أبيض نقيٍّ. كانت بيضاء يومًا ما، ثم صبغ الدواءُ بشرتَها. تتأمل اللون طويلًا، ثم تأتي بمقعدٍ خشبيٍّ، تصعد عليه وتقفز داخل الوعاء، وتختفي.

2

اليوم السابق على اختفاء ألطاف

لم يحب رضوان نقودًا كالتي يسحبها من أمه، حارمًا أخاه زكي منها. كان زكي مطلًّا برأسه المحاط بهالاتٍ بيضاء، ما بين دخان سجائره الرديئة وشعره الأشعث. لم يحرك ساكنًا، وكان رضوان يشتت سكون بِرَك الطين في خطوه. تبادلا نظرات عابرة، بينما دار رضوان لينفذ من باب البناية.

أدركت أنفُه مباشرةً ما جاء من أجله. مرحاض ناهد الخاص صار منذ سنوات جوار فراشها، إجراء تم اتخاذه بعد أن بلغت وزنًا وعمرًا يعيقان أن تتحرك أكثر من خطوتين، بين فراشها والمرحاض. كانت مؤخرة أمه العارية غاطسةً في قلب المرحاض، وقد تدلَّى اللحمُ الزائد حول قاعدته. لم تأبه لوقع خطواته، ولا للهمهمة الصادرة عن فمه. تركزت ملامحُها بجديةٍ في الحائط المتقشر أمامها، وقطع الخراء تتساقط واحدة بعد أخرى، باعثةً صوت مكتوم للمياه أسفلها.

لَفَّه شعورٌ بالغ بالاطمئنان، وهو يغطس بجسده على كرسيّ البامبو الأليف جوار فراشها.

أما هي فتنهدت ارتياحًا، وأدارت مفتاح المياه لتندفع مخلصة

مؤخرتها من بقايا الخراء. دون أن يلتفت إليها، أدرك ما تفعله. سحبتْ عكازها الخشبيَ ذا الرأس المعقوص، واتكأت عليه لترفع نفسها من فوق قاعدة المرحاض. تطاير شعر رضوان المتناثر حول وجهه، على وقع الهواء النافذ من استكانة جسدها الضخم على الفراش.

استلقت تلتقط أنفاسها بصعوبة لتهدأ رويدًا رويدًا، ثم التفتت إليه بابتسامةٍ مُرَحِّبة انشق عنها وجهُها الدائري المنتفخ، مدت ذراعها المكتنز لتلمس خصلات شعره.

أخرجت علبة سجائرها من دهاليز صدرها الضخم، وأشعلت سيجارة وهي ترتخي بجسدها وترفع رأسها نحو السقف.

قام يُقبِّل رأسها، ثم توجه نحو الدولاب الذي تفصله عن فراشها خطوتان، دفع ضلفته الجرَّارة، وسحب حقيبتها من أسفله، ثم اشتعل حنقًا وهو يلمح مئةَ جنيه وحيدة قابعة بقلب الحقيبة.

عاد إليها، وقد تقلصت ملامحه غضبًا أدركته دون أن تنزل عيونها عن سقف حجرتها.

- ما أنتِ لو بتخبي فلوسك زي ما بتخبي سجايرك منه مكنش بقى ده الحال!

تنهدت لا مبالية. سحب المئة جنيه، ودَسَّها في جيب سرواله الخلفي، ثم ألقى بالحقيبة فوق جسدها واندفع من باب الحجرة عبر الممر الضيق إلى حجرة أخيه، الذي كان لا يزال في جلسته

على كرسيه الخشب وقد مد رأسه عبر الشباك. زعق به زكي دون أن يلتفت:

- مش كل شهر تقرفنا يا ابن الوسخة، روح شوف حالك.

أجابه رضوان بشخرة طويلة، وهو يطرق بقبضته على كتف زكي الذي أدار جسده وكوَّرَ قبضته ثم انكسر ذراعه على أثر صوتها الذي نفد إليهما رفيعًا وحادًا:

- اطلعوا اتخانقوا برا يا ولاد الكلب!

كفَّا كطفلين مذنبين. وترك رضوان الحجرة مندفعًا إليها.

- معداش أسبوع على المعاش؛ ودَّاه فين الوسخ؟

- مزنوق.

- ودَّى الفلوس فين؟!

- ملكش فيه، تعالَ خد!

أخرجت الكارت الإلكتروني من عمق طيَّات صدرها، وناولته إياه في خشوع بأطراف أصابعها وكأنها تمنحه شيئًا مُقدَّسًا. سحبه بحماس طفل انحازتْ له أمه، فأعطته اللعبة التي كان يتشاجر مع أخيه عليها.

قالت بصوت حازم من فم صغير، مزموم بشدة بما يتناقض مع حجم وجهها:

- ألف بس يا رضــوان، وترجَّعــه على طــول دلوقت حالًا، اسـحب

م المكنة اللي على راس الشارع، فاهم؟

حين همَّ بالخروج، لمحها قادمة، ممرضة أمه، رأى فيها لون البحر مقتربًا في ساقين رشيقتين ملفوفتان، ليس في العالم مؤخرة بإمكانها أن تجعل السراويل الجينز بهذا الجمال، إلا مؤخرتها. تبدو له في خطوها الرشيق فتاةً تمشي على قدمين من بحر. سقطت عينيه غصبًا على سرواله الذي حال لون «جينزه» إلى الأبيض، فاكتنفه الحرج مما يرتدي؛ ملابسه التي كادت تبلى، وخصوصًا سرواله. وَدَّ ألا تراه، ولكن عقله استدعى وجهها الأبيض الرائق، وجسدها الممشوق، فوَدَّ بشدة لو لم يترك حجرة أمه.

كانت تخطو بأطراف حذائها الرياضيّ، عابرةً مستنقعات الطين، تمد ساقيها الطويلتان الممشوقتان بحذر، وعينيها تتطلعان نحو الأرض. بدت كملكة سبأ في صرح سليمان المُمَرَّد من قوارير.

ألقى عليها تحية وضع فيها كل ما استطاعه من ود، ثم انصرف وهو يفكر في لون «جينزها» وكيف يبتاع «جينز» بمثل هذا اللون الزاهي المنير، فتلحظه أيضًا كما يراها.

في الشارع جذبتْ عينيه سيقانٌ كثيرة زرقاء، كلها زرقاء، لا أثر لسراويل باهتة كسرواله إلا ما يرتديه جامع قمامة بائس وشحاذ. لم يرجع إلي بيت أمه؛ لم يكن هنالك وقت.

في انطلاقه الحلزوني نافذًا بين العربات التي جمَّدها الزحام،

كان خيط الدخان يتسرَّب من الصندوق خلفه ليُذكِّره بخلو معدته منذ الصباح، لو عرج على عم صبحي فقد يتأخر قليلًا، لكن أيجوع وهو مَن يوصل الطعام للناس؟ ليس هذا منطقيًّا. لا فرق في كل الأحوال، فالناس يتذمرون من التأخير، حتى لو سكبنا الطعام من أواني المطعم إلى فوق رؤوسهم الغبية مباشرة!

التقطت أنفُه الرائحةَ المرتبطة بـعربة عم صبحي؛ هكذا تعرَّف عليه من الأساس. تربض عربته الخشبية القديمة في قلب ميدان صغير بكليوباترا، تحاوطه مجموعة من المباني القديمة ذات الثلاث طوابق. تلك رائحة الأكل الحقيقي كما يعرفها جيدًا، ويفرِّقها عن الأطعمة البلاستيكية الباهظة التي ينقلها للناس.

ترك هاتفه يرن كما يشاء بجيبه الخلفي، بينما التَهَم الطعام سريعًا، مستمتعًا بمذاق كل قضمة منه.

تسرَّب إلى الميدان خيطٌ رفيع من الصوت ظل يعلو تدريجيًا ليغطي على الأصوات التقليدية للدجاج وصخب الأطفال والبائعين والعربات المارة بالطريق الخارجي، صار الصوت صوتان. رفع رضوان رأسه، ودار بعينيه بين المباني المحيطة كما فعل الجميع، علا صوت السيدة إلى جلجلةٍ شديدة، وأخرى تبادلها صراخ مشابه لرنين جرس كنيسة عال جدًا وقريب.

ظهرت أخيرًا في الشرفة صاحبة الصوت الأول، وحدث كل شيء في أقل من لحظات.

كانت تحمل برميلًا أبيض ضخمًا يماثل حجم جسدها قلبته دون عناء يُذْكَر من حافة الشرفة لتفور خارجه دماء قانية في موجة لامعة مغيره كل شيء أسفلها!

لون أحمر سميك ينزلق عاكسًا شموسًا صغيرة؛ ليصبغ الأسفلت والأطفال والدجاج، ليخلق في قلب الميدان الرمادي بقعة كبيرة حمراء.

صمتت كل الأصوات وانفتحت الأفواه ذهولًا، حتى الأطفال المصبوغين لم ينطقوا.

فقط غطى الذهول على كل شيء.

* **

في تلك البقعة الصغيرة من شوارع الإسكندرية حتى أعمدة الدخان والتراب المتصاعدة في عناق يوميّ خمدت وكأن عدوى الذهول طالتها، صرخ اللون الزاهي بصوت أخرسَ ما حوله.

الميدان مُترب منذ الأبد، لا يعرف من ألوان الدنيا سوى الرماد، مبانيه وأسفلته ووجوه الأطفال، وحتى الملابس المنشورة على حبال الغسيل لا لون لها، سرعان ما تجتذب أنسجتُها المبللة ذراتَ التراب لتتلاشى في رمادية المشهد.

عَلِق المشهد برأس رضوان، ولم يتزحزح عن مقلتي عينيه في انطلاقه على دراجته البخارية. لم يتسنَ له وقت ليبقى ويطلع

على بقية الحدث، إلا إنه عرف من عم صبحي مصطلحًا جديدًا رن بعقله وكأنه حبل نجاة: «مصبغة»!

- الولية المجنونة صاحبة المصبغة كل يوم عركة مع الستات اللي شغالين عندها، هووووفهووووف، رايحة منها خالص!

وحرَّكَ عم صبحي كفَه من قمة رأسه إلى السماء، إشارة لفقدان السيدة عقلها بالكامل.

كان الميدان قد تخطى لحظة الذهول بِصَمْتِها المُطبق إلى نقيضها التام؛ سيدةٌ كادت أن تسقط من على الشرفة مدفوعةً، أطفالٌ يصرخون، وآخرون هيَّجهم اللونُ فأخذوا يلعبون ببرك الطين المختلطة بصبغة حمراء سميكة، يقذفون بعضهم بعضًا بكرات الطين المصبوغة، وسيدات يتبادلن الصراخ والسباب حتى وصل الأمر إلى التشابك بالأيدي. وهاتفه لا يكف عن الرنين، قفز رضوان على دراجته، وانطلق جسده بعيدًا، إلا أن عقله بَقِي عالقًا بالمكان.

إلى هذا المكان سيُرسِل زوجته لتعيد إلى سراويله لونَها الأزرق الزاهي. ولربما إن أمكن أيضًا أن تصبغ جسدها بلونه الأبيض القديم الذي عرفها به وتزوجها عليه. أبهجته الفكرةُ الأخيرة، وانطلق يقطع السلم عدوًا إلى حيث سيسلم طلبيَّتَه.

3

ناهد، 1964

جلست ناهد تلتقط أنفاسها، وصدرها الضخم غير المدعوم بحمالةٍ يعلو ويهبط. كانت عينا الضابط مرتكزة في تفاصيله، دون أن يركز نظره على ذراعيها المشروطتان في مناطق عدة؛ تفور منها الدماء الطازجة.

بالداخل ولد في الثانية عشر، يقص الطبيبُ والممرضاتُ ملابسَه الممزقة ليطهروا الجروح المتفرقة في أنحاء جسده.

قالت للضابط إن زوجها فعل هذا بهم، فسألها بوضوح لو تود مسامحته على ألا يُعيد فعلته أبدًا. بدت على ناهد رغبةٌ صادقة في العفو عن زوجها، أثلجت صدر الضابط.

قبل ذلك بساعتين:

دخل محمد السيد رضوان بيته على صراخٍ مخيف. كانت الصالة خالية، والصراخ ينفذ من حجرة الأولاد. حين جرى نحوها، وقفت ناهد تسد بابَ الحجرة بجسدِها الضخم.

أراد أن يفهم، أن يطمئن! بالداخل بكاء يصاحبه عويلٌ مُرعب؛ أراد أن يزيحها ليرى بعينيه ما حدث بالداخل. لكنها منعته، وعلى وجهها تعبير صارم؛ لن يتخطى جسدها إلى الحجرة.

قالت: «اطمن، دي خناقة عبيطة بين العيال، روح أنت غيَّر وكُل!»

لكن محمد لم يطمئن؛ كان العويل يتحول إلى استغاثة.

- وسَّعي يا ولية، الله!

الولية لن توسِّع، ولن تسمح له بالمرور عبر الباب.

حين رأت أنه سيستخدم عضلاته قصاد شحمها، أخرجت من صدرها موسًا عرَّته في ثوانٍ، ليلتمع تحت ضوء اللمبة اليتيمة المدلاة من سقف صالتهم الدائرية. تراجع فزعًا؛ المرأة جُنَّتْ. ثم استعاد بأسه، واقترب منها يسب ويشخر. في لحظات كانت تجرح ذراعيها بالموس في خطوطٍ عشوائية؛ ليتجمد في مكانه عاجزًا عن إبداء أي ردة فعل.

قالت بهدوءٍ شديد، وكأن خطوط الدماء المنفجرة من جروح ذراعيها مجرد صلصة طعام:

- عندك في المطبخ حلة كوارع.

خفت العويل، وساد الهدوءُ الحجرةَ بالداخل، فأسقط محمد ذراعه إلى جانب جسده، ودار ذاهلًا لينفذ من باب حجرته.

ألقت ناهد بالموس ودلفت إلى الحجرة، ثم خرجت تحمل صغيرها زكي على ذراعيها المكتنزين، يقطر دمًا من أماكن متفرقة بجسده، كشفتها ملابسُه الممزقة، الملوثةُ دماءً وطينًا، بدا فاقدَ الوعيّ بين ذراعيها. بالداخل كان رضوان صبيًا، في العاشرة من عمره، يجلس باكيًا، ويداه ووجهه ملطختان ببقع دماء.

لم تستطِع ناهد أن تمر وهي تحمل زكي، دون أن يخرج محمد ليرى المشهد كله ويعرف ما حصل.

جحظتْ عينيه، فصرخت ناهد على رضوان ليأتي إليها، كانت بجانب باب الشقة المفتوح، وعلى ذراعها زكي. جرى رضوان نحوها، بينما هرول محمد نحو رضوان بوجهٍ كلون الدماء التي تلطخ كفوفه الصغيرة. مشَتْ ناهد خطوتين، ورفعت قدمها تعرقل محمد وتحث رضوان على الفرار. باغتت محمدَ العرقلة؛ ليس من ذوي ردود الفعل السريعة. ما كانت تأخذه ناهد عليه في شبابهما، كان هو بالضبط ما تستفيد منه بين حين وآخر.

لم تذهب ناهد إلى المستشفى بزكي، بل طلبت من رضوان أن يعدو إلي بيت جدته لكي يجعلها تخبئه عندها، ثم انطلقت إلى القسم.

في القسم جلستْ تنوح، وبين ذراعيها زكي فاقد الوعيّ وذراعيها مصبوغتين بدماء كثيفة. قالت إن زوجها فعل بهم هذا، والضابط نصحها أن تتوجه إلى المستشفى، وهنالك سيتم التحقيق.

لم تكن جروح زكي بالعميقة، لقد فقد الوعي رعبًا من دمائه المنفجرة خلال جسده، كان طفلًا رقيقًا تفزعه الدماء، لا يخطو حافيًا أبدًا في الشارع مثل رضوان.

اطمأنت ناهد على زكي بين يدي الطبيب والممرضات، ثم جلس إليها المحقق. سألها بهدوء شديد لو تود مسامحة زوجها والتنازل عن المحضر ضده، وفي المقابل سيوصِّيه عليهم بنفسه.

كان بشوشًا مبتسمًا؛ ضابط في أوائل الأربعين، يقدِّس الوطن أولًا والعائلة ثانيًا.

أومأت ناهد برأسها؛ ستسامحه وتعود إليه، ولو كررها ستحبسه، وهذا قرار نهائي، قالت في حزم، وأثنى الضابطُ على قرارها الحكيم.

لم تتعلم ناهد في المدرسة، لكنها تعرف كيف تقرأ، وتدرك بفطرتها أن رضوان ليس شريرًا، هو فقط طفلها الصغير الغيور، وتتوجب عليها حمايته من تهديد محمد المستمر بإيداعه الإصلاحية.

4

صباح ثاني دون ألطاف

حين فتحت مريم عينيها، لم تدرك أين هي للوهلة الأولى. لكنها فزعتْ حين رأتْ عيونًا صغيرة تُبادلها النظرات، اعتدلتْ لتتذكر أنها باتت على أريكة الصالة الليلة الماضية.

كانت منزعجة من غياب أمها فسمحت لها مروة بالبقاء أمام التلفزيون بعد مرور موعد نومها، وكانت مروة مستلقية إلى جانبها. لم تعرف مريم بالضبط متى نامت، وهل أتمت دُورَا مهمةَ عودة التمساح إلى البحيرة أم لا، ومتى تركتها مروة، ثم هذا الببغاء!

كان الببغاء يبادلها النظرات. طار وحط إلى جانبها، ففزعت وانتفضت مبتعدةً. لكنه تحدَّث معها بطلاقةٍ، فاندهشت. بدا لها كالببغاء المصاحب لدُورَا خلال رحلتها في إنقاذ التمساح الليلة الماضية.

أَلِفَته، وتجولت معه في أنحاء الشقة بحثًا عن مروة، لتجدها في جلباب أمها أمام الموقد. أدارت لها وجهًا مبتسمًا، وأجلستهما، ثم اقترحت عليها أن تجد للببغاء اسمًا، ريثما تُعدُّ لهما الطعام.

سألت مريم بقلق بالغ هل تعود أمها؟ فأشارت مروة إلى الببغاء قائلةً فلنسمه ألطاف إذن، حينها رأت رأس أمها على جسد الببغاء، انتفضت فزعة، ثم شرعت في البكاء وهي تنادي على ألطاف، خرجت مروة إلى الصالة مسرعةً لتهدئ من رَوْعِها.

رأت مريم الببغاء يطل عليها من شاشة التلفزيون حيث تُعَاد نفس حلقة الليلة الماضية.

سألت مروة بصوت باكٍ : فين ماما؟ وليه سبتيني لوحدي بالليل؟

- معرفش يا مريم فين ماما، عاوزة تدخلي الحمام علشان حنام؟
- لما ماما ترجع تدخلني.
- ماشي اعملي بيبي على روحك زي العيال الصغيرة..
- طب دخليني الحمام.

قامت مروة منزعجة ومتأففة وضعت مريم على المرحاض بتثاقلٍ.

- مريم أنت كبرتي خلاص آخر مرة حدخلك الحمام!
- أنا عاوزة ماما..

انتهت مروة من تنظيف مريم بنفاذ صبر وخرجت مباشرة من

الحمام إلى فراشها، لحقتها مريم:

- جعانة.

جذبت مروة الغطاء حتى أخفت رأسها، قفزت مريم على الفراش تحاول إزالة الغطاء عنها:

- يا مروة أنت حتنامي ليه؟ متناميش إحنا بقينا الصبح، وأنا جعانة..

أخرجت مروة رأسها من أسفل الغطاء لوهلة وزعقت في مريم:

- مريم اطلعي برا الأوضة.

لم تخرج مريم وإنما انسلت أسفل الغطاء ملتصقة في مروة بينما تسألها عن ألطاف مرة بعد أخرى، بتكرار لا ينتهي، رفصت مروة الغطاء وهي تصرخ في وجهها، فجَرَت مريم إلى خارج الغرفة تبكي، ارتمت بجسدها على أرضية الصالة، ورفعت صوتها بالبكاء والصراخ، ثم صمتت وقد انجرحت حنجرتها.

رفعت رأسها عن الأرض تستطلع، فلم تجد مروة حولها. شعرت بالغضب من لامبالاة مروة ببكائها، فجلست القرفصاء وأسندت رأسها على كفيها، مقطبة حواجبها مرتكزة ببصرها على باب الشقة، ثم ضحكت بلا صوت، انقلبت ملامحها إلى غبطة عباس بن فرناس حين حلقت طائرته الشراعية أخيرًا.

قامت ثم ركضت نحو باب الشقة، وفتحته ثم لطمته بعنف شديد، وجرت لتختبئ حيث لن تجدها مروة أبدًا.

كانت ألطاف تحتفظ بصندوق خشبي ضخم ورثته عن جدتها. تستطيع مريم أن تندس بالصندوق القديم؛ لتراقب من أخرام عدة في جسد الصندوق ما يدور حولها.

انتفضت مروة فزعة على وقع ارتطام الباب. لم تجد أحدًا بالمنزل. ندهت على مريم طويلًا، وبحثت عنها في كل مكان. التقطت مفتاح الشقة بأصابع مرتجفة، وخرجت في بيجامتها وشعرها الأشعث، تاركةً الباب يرتطم خلفها.

انتظرت مريم بضع دقائق، قبل أن تطمئن للخروج من مخبئها. تحركت على أطراف أصابعها وهي تتطلع نحو الباب. انطلقت إلى المطبخ عدوًا، وفتحت الثلاجة. عبثت بمحتوياتها تبحث عن شيء تأكله. وجدت وعاءً باردًا به بقايا دجاجة، أخذته وعادت إلى جانب الصندوق تأكل في نَهَم. تلتقط اللحم حول العظم، بل وتقطم العظم نفسه ككلب جائع.

جرت مروة على السلم فزعة، حتى أنها لم تشعر بعدد الأدوار التي طالما أغضبها نزولها.

على مدخل العمارة وقفت حائرة ترسل بصرها بأنحاء الشارع. مشت مرتبكة، وشعرت برأسها يدق وقلبها يرتجف، ثم هرولت وهي تبحث عن مريم. كان يُكبِّلها الخجل من أن تسأل عنها الجيران، فتبدو كمَنْ أضاعت أختها بعد ليلتين فقط من غياب أمهما. سارت تنثر التراب بشبشبها، وتلتقط طين الشارع بأصابع قدميها العاريتين.

لمحت مريم أخيرًا؛ كانت هنالك على ناصية بعيدة تقف ثابتة، والهواء يعبث بشعرها وذيل فستانها اللبنيّ. وكأن مطرًا سقط بقلبها، جرت نحوها فرحة وغاضبة عليها، اِلتَقَطتها من ظهرها، ليفاجئها - قبل أن تصرخ بها - وجهٌ فزع لفتاة صغيرة ليست مريم، وملامحٌ مندهشة لرجل مقطب وغاضب.

أنزلت الفتاة فورًا، واعتذرت من أبي الفتاة بلسانٍ مرتجف:

- معلش آسفة، آسفة جدًا. افتكرتها أختي والله!

تراجعت خطوات وهمَّتْ بالرحيل، لكنه استبقاها بصوت ثقيل عذب:

- أختك تايهة؟

جذبها صوته إلى تأمُّل ملامحه: كان جميلًا حقًا كإله من آلهة اليونان، له عيونٌ زرقاء شفافة كألماسة نادرة، وبشرة خمرية صافية، وجسد ممشوق لا تشوبه شائبة.

هنالك أمامه أدركت جسدها، فرفعت كفها لتسحب شعرها الأشعث المتناثر حول رأسها للخلف علّه ينام. لمحت أصابع قدميها مملوءة بالطين، ورأت بيجامتها الرثة.

- عادي حترجع، تلاقيها بتلعب هنا ولا هنا!

أدارت له ظهرها، وشدت الخُطى لتبعد مظهرها الرث عن عيونه الرائقة.

- طيب لو تحبي نساعدك...!

كأنها لا تسمع، هرولت تحاول الابتعاد عنه قدر الإمكان. لو تمحو صورتها عن عقله، بينما يحتفظ عقلها بكامل صورته، بكل تفصيلة سجلتها عيونها من جسده.

اللعنة على مريم، واللعنة على أمي؛ فكرت بعقلٍ ساخن.

جلست تلهث على مدخل بنايتها..

تناهى إليها هديرٌ مألوف، نفخ في جسدها طاقةً جديدة جرت بها نحو أبيها القادم على دراجته البخارية من أول الشارع. فزع رضوان حين رأى ابنته تركض في الشارع أمام أعين الناس بملابس نومها، ورأى صدرها يتراقص فسخن عقله. أَمَالَ درَّاجته، وقفز من عليها تاركًا إياها تسقط، ثم انطلق نحو مروة بوجهٍ مُتجهِّم، وشدَّها من ملابسها إلى مدخل بيتهم. كانت تولول بكلام لم يتبيَّنه. لم يدركا كيف وصلا إلى باب الشقة. ظن أنها تولول لاختفاء أمها. شعر أنها جُنَّتْ، وغضب غضبًا شديدًا، كاد معه أن يضربها للمرة الأولى، بل وزعق عليها بما اعتبروا دومًا الكلامَ عنه في بيتهم خطًا أحمر، بأن ألطاف التي تبكيها ليست أصلًا أمها! حتى انتبه إلى ما تقوله عن اختفاء مريم، ففزع وهدأ.

جلسا على أريكة الصالة متجاورينِ، يبحلقان بباب الشقة. قال يطمئنها:

- يا عند أمي، يا بتلعب مع العيال تحت وحترجع!

كانت مريم تراقبهما من موقعها في تطلع وصبر. أحبت أن تتلذذ بعقاب مروة، وشعرت بإشفاقٍ على أبيها، لكنه كان شعورًا لم ينتصر ليحركها خروجًا عن مخبأها.

لمحت مروة في عيني رضوان التماعة، بدا لها أنه بالفعل يحبهما. بدا لها منكسرًا وقد ارتخى بجسده على الأريكة وأسقط ذراعيه إلى جانبه، وانحدرت ما ظنته مروة دموعَ فزعٍ على وجنتيه. كان مشبك شعره قد سقط خلال تشابكهما منذ لحظات، وانطلق شعره أشعثَ وكثيفًا حول وجه صغير. كان صدره يعلو ويهبط في لهاث ظاهر، يقطعه سعالٌ جاف.

كانت مروة مرهقة كأشد ما يكون، وشعرت بانجذاب نحو صدره المفتوح، فمالت برأسها عليه وأغمضت عينيها.

ترك رأسها على صدره، دون رد فعل يخشى أن تسيء فهمه. لكنه استشعر من جسدها رغبةً في أبوته، فقبَّلَ رأسَها وجبينَها. كانت تتذكر أصابعه التي نفذت بفرجها في ما سبق، لكنها لم تستطِع في تلك اللحظة أن تجد في نفسها أي طاقة للشك بأبوته. أرادته أبًا. أرادت عناقًا حنونًا، وراحةً عميقة على صدرٍ واسع يحتوي كل ذلك الوجع؛ وجع الغياب، ووجع الذنوب.

تركت عيونها مغمضة، وهو أطال الثبات دون أن يفعل ما

قد يريبها. أراد طمأنتها، واطمأن أيضًا إلى السخونة المنبعثة من جسدها. كانت في تلك اللحظة بالذات، وهي مغطاة بقذارة الشارع، تشبه أمها الحقيقية حين التقاها للمرة الأولى بينما تبول في ماء غسيل الأرضيات.

استشعر بخبرة طويلة بالنساء استسلام جسدها، والنعاس المتسلل إليها، فأعاد تقبيل جبينها كأب حنون. ولاطفها بكلمات مطمئنة؛ كلمات يعرف جيدًا أنها ما تحتاج سماعه في الوقت الحالي.

- ارتاحي يا مروة!

كان عقلها بالفعل قد بدأ يغيب عند أطراف حلم متسلل. رأت عينان زرقاوان وجسدًا ممشوقًا، رأته يتلقفها داخل ذراعه ويطمئنها، ثم يحمل ضعفها كله، كما رأته منذ قليل في الشارع يحمل طفلته بين ذراعيه.

كان يحتويها كلها، ويخبئها، كرحم أمها، صغيرة بين ذراعيه. همس بأذنها أن أغمضي عينيكِ، فكل شيء سيكون بخير. وأغمضت عينيها، لكنها كانت تراه يسير بها على رمل ذهبي ناعم نحو بيت صغير له ستائر بيضاء ترفرف على أثر هواء البحر. وبالداخل فراش ناصع البياض وضعها فيه على مهل، ثم جلس يتأملها بزرقاويه اللتين تلونتا بكل درجات البحر خلف جسده.

كان رضوان، الذي شعر بانتظام تنفُّسها، قد رفع رأسها مهلًا

من فوق صدره، ثم أراحها على الوسادة. قام بخفة، ثم جلس بمحاذاة الأريكة يتأمل طفلته نائمة في سلام بالغ.

رأى أمها في ملامحها. لم يكن انجذاب رضوان لسيدة بدافع الشهوة قط؛ لقد أحبها فعلًا، دون أن يقلل ذلك من حب ألطاف بقلبه ولو قليلًا.

كانت سيدة تذكره بأمه. شعر بنفسه أمامها طفلًا يرفع رأسه ليرى أمه يتلاعب بها العالم، وهو لا قدرة لديه ليحميها. كان يرفع رأسه أيضًا ليرى سيدة فهي طويلة، لكن بذراعه نمت عضلات تمكنه من احتوائها وصَد العالم عنها. سيفعل معها ما أراده دومًا، حتى لو كانت تظن أنها لا ترغب فيه. هي لا تدرك حقيقة ما تحتاج إليه، لكنه يعرف.

في حلمها رأت مروةُ رجلَها ينحني عليها ويقبل جبينها، ثم يَنْسَلّ بشفتيه ليعتصر شفتيها في نهم، بينما يمتد كفه الكبير ليعتصر ثديها.

لم تفتح عينيها. شعرت بكهرباء تسري في جسدها كله؛ لذة عميقة لا ترغب لها في التلاشي، بل تود لو يستمر الأمر حتى ترتوي من عطشٍ طويل.

كادت مريم أن تخرج من مخبئها؛ لتشارك في ما ظنته عناقًا جماعيًّا. لكنها تجمدت أمام مشهدٍ غير مألوف: رأت صدرَ مروة

عاريًا، ويد رضوان تعتصره.

أفلتت من حنجرتها شهقةٌ، فتحت مروة عيناها على أثرها، وانتفض رضوان قيامًا عنها. رفعت مريم رأسها، لينفتح الصندوق عنها كعفريت العلبة. وتجمد الثلاثة في تبادل صامت للنظرات.

5

سقطت الشمس مباشرة وقوية على رأس فارس الدائري الصغير، إلا إنها عجزت عن التلاعب بلون بشرته شاهق البياض، رغم تكرار وقفته على حافة الشارع الواسع، في انتظار زاهر الذي لا يقل زمن تأخره عن نصف الساعة، أو لاصطياد عابر آخر يجعل من جسده درعًا للعبور.

مشارف الشتاء، والحر يجر أذياله غير مستسلم ولا تارك فراغه لبرودة حقيقية، لا يزال مصرًا على مشاركته المكان. يتراجع فارس خطوات إلى ظل شجرة، مبتسمًا للنسمات التي تعبر شَعْر رأسه فتحنو عليه بلا قيود، يُتوق للعهد الجديد المنفتح بغياب ثقل أمه؛ ضخامة جسدها تجعله يراها دومًا كدجاجة ثمينة جاثمة على حياته، ظنًا منها إنه بيضتها لا يزال! ـ تمكن من إقناع مروة أنه في حاجة لمبلغ من المال، من أجل كورس يساعده على اجتياز هذا العام، فسلمته إياه - كارهةً مؤنِّبة.

تحسس فارس الحافظة الجلدية المنتفخة في جيب سرواله بنشوة مطلقة، بها مفاتيح النعيم. مرت نسمة باردة تداعب أوراق الشجرة فوق رأسه فاقشعر بدنه من برودة مفاجئة، وخرج من الظل متلقيًا دفء الشمس.

تقدَّم حتى نهاية الطِّوَار، ينتهي حذاؤه الرياضي بشكل بيضاويّ

بنيّ، يُذكِّر - مع ضخامة قدمه - ببهلوان السيرك. ثبتهما بطرف الرصيف، وأخذ يتأمل سيل العربات التي تمر تباعًا وتحرك الهواء من حوله، فتنفخ قميصه الأبيض الواسع. كان ينتظر زاهر اليوم بلا تململ، ذهنه ممتلئ، ليس حاضرًا. لكن خيالاته عن الشارع تأبى أن تتوارى؛ يراه بحرًا عميقًا تنساب ماؤه، في تيار هائل القوة، نحو شلال عظيم الارتفاع. لو جازف مُنزِّلًا إحدى قدميه سينزلق نحو تيار المياه المتدفق بسرعة جنونيه دون أدنى قدرة على التحكم في جسده، حتى ينتهي إلى الصخور أسفل الشلال، فتحيله أشلاءً.

دسَّ أصابعه في جيبه، وأغلقها عميقًا على ملمس المحفظة لتعيده إلى نشوته الأولى. لا أحد ينتظر زاهر، لو كان يومًا ككل يوم لاصطاد شخصًا يعبر معه الطريق.

وضع زاهر يده على كتفه، فانتفض فارس عائدًا. قال زاهر وهو يرفع كفه عن كتف فارس في نفس لحظة انتفاضه:

- خوفتِ لأتحرش بيكي يا بيضا؟
- اتأخرت ليه يا ابن المتناكة؟
- حد قال لك تستناني يا ابن الوسخة؟

دفع فارس بزاهر ليكون في مرمى السيارات المنطلقة، وهو يأمل ألا يلحظ زاهر تصرفه. لكن زاهر كان يعلم، ولو أراد أن يُجنِّبه الحرجَ لتطوَّع واضعًا جسده على مرمى السيارات. يحب

أن يجعله مرتبكًا كما يفعل به فارس مساءً، حين تخونه معدته وتضطرب، فتلفظ ما حملته طوال النهار.

في إحدى الليالي، وقف فارس وسط الجميع في أول الليل، وسحب شيئًا من جيب سرواله معلنًا أنه جاء به خصيصًا لأجل حل أزمة زاهر؛ وكانت بافتة أخته الصغيرة! تمادوا في النكتة، حتى ألبسوه إياها بالفعل، ثم التقطوا صورة.

وقف زاهر وفارس يتأملان المبنى الذي اتفقا مع زملاء الكلية على اللقاء عنده. كان نصف المبني السفلي قديمًا ذا طراز معماري يوناني؛ الشرفات مصنوعة من برامقٍ متجاورة ومحمولة على كابولي، ويتوسط كلَّ شرفة نحتٌ من أسدٍ مفتوح الفم، مُشوَّه بطلاء أخضر فاقع ورديء، يبصق أسد منهم خط مياه بنية على الرصيف أسفله، ليُكَثِّف بقع الطين ويعمِّقها. نصف المبني العلوي حديث بُنِيَ دون طراز، فقط صندوق أخضر مرتفع، وقد انشق به الكثير من الشبابيك المتجاورة من الألوميتال، إمعانًا في الحداثة.

شارع السبع بنات أقرب إلى الجمود منه إلى الحركة، صفوف السيارات والحافلات الصغيرة تتحرك ببطء شديد، والدخان يتصاعد ملتويًا ومصحوبًا بالتراب من بينها. ظهر الزملاء خارجين من الباب الضخم، الذي لا يزال على طرازه القديم.

تقدموا نحو فارس وزاهر في لغط، وتبادلوا التحيات المصحوبة بالسباب مع القبضات والبصاق. كانوا خمسة شباب يزاملون زاهر وفارس في المعهد، واتفقوا على الالتقاء هنا حيث يسكن أستاذ مادة الاقتصاد والإحصاء، وهو في الوقت نفسه عم واحد منهم. كان الاتفاق أنه سيمنحهم جزءًا من الامتحان فقط وليس كله، لكنه جزء يضمن لهم اجتياز الاختبار بنجاح، وهو المطلوب. أخبرهم أحمد، وهو يدس هاتفه بجيبه:

- عمي لما عرف إن فارس معانا غيَّر رأيه! بيقول إنك عيل فاشل وناقص رباية؛ تلات سنين في نفس أم السنة يا جدع، ده أنت لو كنت حمار كان زمانك نجحت!

لطمه فارس على مؤخرة عنقه، وهو يصدر صوتًا حلقيًا طويلًا.

- لأنت فاكرني حقعد أذاكر يا له؟ المذاكرة دي للبهايم أمثالك!

وقفوا حائرين يقلِّبون الأمر على جوانبه، حتى اتفقوا أن يصعدوا للدكتور، ويدخل فارس أولًا ليعتذر منه عن سخافاته خلال محاضراته، ويلح عليه ويلوِّح بزيادة المقابل المادي. فقبل فارس على مضض.

انطلقوا يرتقون السلالم الرخامية قليلة الارتفاع في سرعة وقفزات عالية، حتى انتهوا إلى السلالم الجديدة من الطوب الأحمر عالية الارتفاع.

طابقًا وراء طابق، صاروا يلتقطون أنفاسهم بصعوبة، يصعدون

متثاقلين، وهم يتندَرون على هذا الأستاذ الجامعي الذي سكن بناية رديئة شاهقة الارتفاع كتلك دون مصعد كهربائي.

أخيرًا بلغوا الطابق الخامس عشر والأخير. دفعوا بفارس، الذي كان منهكًا يكاد يسقط من الإعياء، أمام باب حديديّ صغير، أصابه بدهشة بالغة

- هو عمك ساكن عالسطوح ياض ولا إيه؟

رد أحمد:

- لأ يا حمار، ده باب حديد وراه باب الشقة!

وأولج مفتاحًا صغيرًا في طبلة الباب الصدئ، انفتح الباب وهو يزمجر. وقبل أن يرى فارس ما بالخارج، كانوا قد دفعوه عبر الفرجة، وأغلقوا الباب خلفه بالمفتاح، في تكاتٍ اِلْتَقَطَتها أذنيه تكةً بعد أخرى، ليفاجئه السكون العميق والريح ترتطم به في دفعات شديدة على هذا الارتفاع الشاهق.

كان بالفعل سطح العمارة، ممرًّا ضيقًا مُسَوَّرًا بطوب واطئ لا يكاد يصل إلى ركبتيه. الممر ممتد نحو سلم حديديّ، يصل ذاك السطح بسطح واسع ممتلئ بالأطباق الحديدية الكبيرة.

كاد فارس أن يفقد الوعي.

لم يستطِع منعَ نفسه من التطلع نحو الشارع. ومن هذا الارتفاع الشاهق بدا كل شيء يشبه ألعابًا بلاستيكية صغيرة. شعر أنه

بالفعل يسقط. أحس بقلبه ينزلق عبر جسده ثم يتهاوى سريعًا ليرتطم متكسرًا على أسفلت الشارع. رأى جثته هنالك مهشمة بين السيارت المنطلقة فوق حطامه لا تعبأ بشيء، إنه يسقط مرة بعد أخرى، يتحطم مرة بعد أخرى . ألطاف اختفت، العالم واسع ومخيف. أمه ليست هنالك، لا يوجد سوى فراغ هائل محدق به.

ألصق جسده بالباب الحديدي خلفه، قد كفَّ عن التقاط أنفاسه منذ فترة . لا يقدر حتى على الصراخ.

لم يتناهَ إلى مسمعه استغراقهم في الضحك خلف الباب.

أشار أحد الشباب للبقية أن يخرسوا، علَّهم يسمعون صيحات الاستغاثة، لكن لا شيء.

انسابت من فارس ثلاثة خطوط من الماء؛ اثنان من عينيه، والثالث أسفل سرواله. وانطلق قلبه يدق، وهو يكاد ينشق عن صدره.

6

قبل ليلتين من اختفاء ألطاف

حين فتح فارس باب حجرته، تحرر شعاع من شمس العصر مغتصبًا ظلمة الشقة ليسقط أخيرًا على وجه ألطاف الجالسة فوق أريكة الصالة. شعرت ألطاف أن عينيها تضيئان، وتخيَّلت لونها المائل إلى الاخضرار يلتمع بفعل الشمس، وأحست بالظل الذي تلقيه أهدابها الطويلة على وجهها. شعرت بنفسها جميلة، كما هي في الصورة الماثلة تحت أصابعها في الألبوم الذي تتفحصه. لم يلتفت فارس نحوها، واتجه إلى الحمام مباشرة. لفَّتْ رأسها تتابع تحركاته، وتتأمل جسده الطويل النحيف. ابتسمت في نشوة كأنها عرفت الآن فقط أن هذا طفلها، وأنه رغم كل شيء قد نما إلى هذا الحد. وهو ملكها حقًا؛ بقى في جسدها تسعة أشهر، ثم خرج منها إليها، يسحب غذاءه من صدرها فينمو.

حين خرج من الحمام، كانت أشعة الشمس تنير وجهها لاتزال. تأملت ملامحه، ورأت عينيها في وجهه. وما إن لمح الألبوم بين يديها، حتى لوى شفتيه ساخرًا:

- عاوز فلوس، مبلغ كبير للكورس!

حين استقبلت سخريته من إعادة تصفحها لتلك الألبومات

القديمة، وتناهى إليها صوته المعتاد مطالبًا بالنقود تراجع حبها نحوه لوهلة، أخذت تتصفح الألبوم متجاهلةً إياه.

- يا ماما!

- الكورسات اللي بتتسطل بيها بالليل؟

- مش حنخلص من الحوار ده؟ والله محتاج فلوس ضروري للمعهد!

انسحب شعاع الشمس متراجعًا، ليضيء بقعة الأرض خلف فارس. خَلَّفَ تراجعُه شعورًا بالظلمة داخلها. ودَّتْ لو تضم فارس أيضًا كمريم، لو يعود مثلها صغيرًا، ثم تحاول معه مرة أخرى كي يصير شابًا آخر. حتى لو صار قصيرًا كرضوان، لا يهم.

كان يرمقها في غيظ، يود لو يسحب ذلك الألبوم فيمزقه إربًا، لو يخبرها أنها سمينة مثل دبٍ قطبيّ. مدَّتْ يدَها تسحب وعاءَ فشار كان على الطاولة أمامها. ملأت كفها منه، ودسَّتْه كله بفمها. صوت مضغها للفشار كاد يودي بعقله. نعم، هي كسيد قشطة حين يلقون بفمه أطنانًا من الطعام، ولا يشبع أبدًا. يريد أن تعطيه النقود فيخرج من هنا بأسرع ما يكون.

- أسقط السنة دي كمان؟

قالت بلامبالاة:

- كده كده حتسقط!

وأغلقت ألبوم الصور ونَـحَّتْه جانبًا، ثم تناولت وعاءَ الفشار ووضعته على حجرها. بيدها الأخرى سحبت الريموت ثم نفخت الحياة في التلفزيون. مدَّتْ يدها تهش فارس جانبًا؛ أرادت أن تغضبه كما يغضبها. تعلم جيدًا أنه سينجح في إقناعها كالعادة، لكن ليس بتلك السهولة. ويعرف هو أنه لو استشاط غضبًا لن يكسب شيئًا، وسيخرج من الموقف خاسرًا، جلس يجاورها على الأريكة. استقرت هي على قناة تعرض مسلسلًا مصريًّا كان يكرهه. ملأ كفه بفشار، وتناول بعضه بينما الغضب يكاد ينفجر بداخله.

- ماما، اتفقنا على الصراحة صح؟

- صح، ها؟ عاوز تسكور؟

- لأ، حنشتري الامتحان!

انتبهت بكل حواسها على أثر كلمته. مالت تضع وعاء الفشار على الطاولة، وكتمت صوت التلفاز، ثم التفتتْ نحوه ذاهلة:

- نعم؟

- والله، الدكتور وافق يبيعه، حنقسم تمنه أنا وزمايلي، وأنجح بقى يا ماما، خليني أتخرج من أم الكلية المعفنة علشان أشوف مستقبلي وأشتغل!

كانت ترمقه صامتة، لم تكن نظرة الغضب التي تطالعه بها، كانت نظرة أخرى. رأى انكسارًا، وأشفق عليها من صراحته.

شعرت برغبة جارفة في البكاء، ودَّتْ لو تصرخ، لو تضربه، لو تضمه، لو تقتله ثم تعيد بعثه خلقًا جديدًا.

أعادت الصوت للتلفاز. حاول معاودة النقاش معها، فرفعت الصوت، ثم استمرت ترفعه وترفعه حتى آخره. رفعت صوت التلفزيون ثم الريسيفر، حتى صار الضجيج يلفُّ البيت ويمتلكه بالكامل، علا جدار الصوت خانقًا له ولها، يعزل أحدهما عن الآخر. تتحاشى به البكاء، ويستشيط منه غضبًا. نهض من جانبها يائسًا، ثم خرج صافقًا الباب خلفه، بعد أن ألقى عليها في الهواء جملة لم تتبينها:

- كسم الصراحة ما دام مش نافعة معاكي!

7

كان فارس طفل ألطاف الأول. شعرت معه بامتلاء، وكأن ليس بقلبها مكان لحب آخر، ولن يساع رحمُها طفلًا بعده.

هكذا كانت تفكر وهي تلمس بشرته الطازجة وتلقمه ثديها وتستشعر أنامله الصغيرة على صدرها، وهي تضمه بقوة، فتود لو يتوقف الوقت عند تلك اللحظة.

ودَّتْ ألا يشبه فارس أباه، أن يصير طويلًا جميلًا. كانت بشرته ناعمة، وكانت ألطاف تحرك أصابعها على وجهه الصغير، لتتأكد من خلو نسيجها من الحفر التي يمتلئ بها وجه رضوان.

رفضت أن تستخدم معه الحفَّاضات ظنًا منها أن ذلك سيؤذي عضوه الذكري؛ قد لا ينمو جيدًا، أو قد يصاب بالعقم فلا ينجب.

حين يقربها رضوانُ، كانت تذهب مباشرة إلى الحمام بعد أن يُفْرِغ مَنيّه بها، فتغتسل جيدًا، وتغسل فرجها عميقًا للتخلص من كل حيواناته المنويَّة، فهي على يقين أن رحمها لم يُخلَق إلا لفارس.

إلى أن جاء لها رضوان ذات يوم بطفلة، وألقاها بين ذراعيها؛ قال «أمها ماتت». وقال «بنتي وحتربيها زي بنتك»، وذهب. قلب ألطاف لم يُخلَق إلا لحب فارس، لكنها فرضت عليه حبَ مروة، كصلاة يومية تؤديها تجنُّبًا للجحيم.

ذات ليلة أخرى، جاء لها رضوان بخمر. أصرَّ أن تشاركه الشراب، وأن يمارسا الجنس وهي سكرانة. لم تكن ألطاف بالمرأة المُنْقَادة، لكنها أحبت التجربة. بررت ذنب تلك الليلة خلال مناجاة مع الله قائلة له إنه قد أمرها بطاعة زوجها، فاستجابت له، وكانت مريم ثمرة تلك الليلة. كانت دائخة ورأسها ثقيل، واستسلمت لنومٍ عميق بعد الجماع.

اكتشفت، والطبيب يضع مريمَ بين ذراعيها، أن قلبها ليس كحُجرة بعدة أمتار تمتلئ وكفى؛ لقد اتسع بحب مريم، وأدركت يومها أن لمروة أيضًا ركنٌ خاص بقلبها.

في مدرسته الابتدائية كان فارس قصير القامة مقارنة بأترابه؛ لاحظت ألطاف ذلك بنفس منكسرة. كان يعود بجسد مجروح وملابس بلون الطين ودموع متجمدة. دارت به على الأطباء، ودَسَّتْ بفمه عدة أنواع من البروتينات والهرمونات، فضلًا عن وصفات العطارين وأحجبة الشيوخ. ولم يخب مسعاها.

استطال فارس فجأة!

كان يزداد طولًا ونحافة، نحافته لا تؤثر بها كل أنواع الأطعمة حتى تلك التي تصنعها له خصيصًا كي يسمن، كانت مروة هي مَن تسمن!

لم تمر طفولة فارس دون أن تترك ندوبًا عميقة كان لها بالغ الأثر على شخصيته في ما بعد.

كان يخشى المواجهة. ومثل عمه، كان يغيب عن الوعي إن رأى دمًا. وضعته في تمرين تايكوندو، فزاده التمرين خوفًا على خوف. كل ليلة بعد التمرين يبكي في ركن خفيّ كي لا يراه أبواه فيعنفاه، أو تراه أخته فتهزأ به ودموعه تنسكب في الداخل. لطالما سخرت منه وهما يكبران معًا. تدعس بشبشبها صرصارًا سبب له فزعًا، ثم تدسّ صرصارًا آخر في ياقة قميصه.

كره رضوان أن يكون فارس جبانًا كعمه، وصمم أن يجعل منه رجل شجاع لا يهاب شيئًا، فوضعه منذ طفولته بمواضع الخطر.

كان يرسله طفلًا لم يكد يبلغ عامه الثامن؛ ليبتاع له شيئًا من الشارع فيتوه طويلًا ويعود باكيًا بصحبة غريب، فيصر على إعادة إرساله. في إحدى المرات تاه وقابل غريبًا يسأله عن الطريق، ابتسم له الرجل والتقط كفه الصغير يطمئنه ويرشده، فإذا به يقوده إلى مكانٍ ناء. حين استعاد وعيه، عاد جارًّا قدمه يحكي ما حصل معه لألطاف راجيًا إياها ألا تخبر أباه، إلا أن صدمتها مما عرفت لم تدع بعقلها بصيص صبر تعالج به الأمر في حكمة وأناة، جزعت وصرخت ثم كلمت أخيها الطبيب كي يأتي ويعاين فارس، فعلم الجميع عن جُرسته.

صار يخشى كل الرجال لأنهم سيؤذونه، ويخشى أترابه من الصبيان؛ لأن قصر قامته كان يقدمه لهم لحمًا شهيًّا للتنمر.

حين اكتمل نمو فارس، هاجمت الجلطات قدمه. أخبر الأطباء ألطاف أن الجلطات، رغم أنها من الأمراض التي يتوارثها الناس،

إلا أن ظهورها في مثل عمر فارس وهو شابًا يافعًا لا يزال، كان سببه ما دَسَّته بفمه صغيرًا من هرمونات كي تستطيل قامته.

في خضم مشاعر الذنب التي التفت بألطاف كأرجل أُخطبوط ضخم، حاولت تعويضَ الشاب بمنحه الكثير من المال، ذاك المال الذي اكتشف به متنفسًا يصرف عنه أشباحه. لو غاب عن وعيه تذهب المخاوف بعيدًا، يكون وقتها فارسًا حقًا لا يخشى من العالم شيئًا.

أخبرها طبيبٌ نفسيّ زارته وحيدة تحدثه عن فارس أنها هي من دفعته لمعاقرة المخدرات بضَخِّ النقود في يده بلا حساب. وها قد عاودتها مشاعر الذنب.

ألطاف مكبلة بالذنوب؛ تشعر بالتقصير تجاه مريم، وبنقص المشاعر تجاه مروة، وبفرط العناية التي أفسدت على فارس صحته ثم مستقبله.

8

صباح يوم ثالث بلا ألطاف

لم تغادر مروة فراشها ذلك الصباح. ضاع إلحاح مريم هباءً وفشلت كل حيلها لإخراج مروة من حجرتها، حتى انتهى الحال بالصغيرة إلى تناول بقايا الوجبة الذي تركها رضوان فجرًا على طاولة المطبخ، بينما تتابع الرسوم المتحركة ولا يذهب جوعها، تدير رأسها الذي يكاد يفيض بتساؤلاته في أركان الشقة؛ لا ألطاف تعود ولا مروة تستيقظ.

الحقيقة أن مروة لم تكن نائمة أسفل طبقات سميكة من الأغطية، كانت تتناول هاتفها وتتفحصه بعيون نصف مغمضة، كأن ألطاف ستتجسد لها من خلال شاشته، ثم بعد وهلة تسقطه من بين أصابعها وتنزلق في حالة مضطربة بين النوم واليقظة، حيث تتابع هنالك أيضًا بحثها عن أمها.

رأت ألطافَ تتحرك بثقل وزنها، منحنية الجذع على أثر الحجر المزروع بقلبها، كما كـانت مـروة تتخيله في الآونة الأخيرة، منتفخة بشدة حتى لتمتلئ بها غرفات المــنزل وصولًا لأكثر أركانه انزواءً، مبعثرة. مع كل ألم يــزرعه بها فــارس، تراها تهترئ، تفقد كل قوتها وتتساقط كأنها تــذوب. ولا تنتهي، بل تتكاثر حاملة جسدًا

يثقل عليها عبئه كل ساعة.

كانت ألطاف تبحث بين ثنايا جسدها المبعثر والمفترش حول رأسها الصغير بالنسبة إليه، عن شيء ما. بدت تائهة؛ ربما كانت تبحث عن البيت الذي يحتوي كل ذاك الدهن المُذاب. رأتها مروةُ تلتقط نجمةً صغيرة التمعت عند منطقة بعيدة من دهنها المُذاب على امتداد البصر، تمد أصابعها بصعوبة تحاول التقاط النجمة، وتنكمش ملامحها في ألم حين تكاد تلمسها.

يرتفع رنين هاتفها ساحبًا إياها من غفوتها، تمدُّ أصابعها المرتجفة لتلتقط هاتفها من أسفل جسدها لتفاجئها الحروف الأليفة «ماما، اتصال وارد». تنتفض غير واثقة ما إذا كانت تستكمل أحد أحلامها أم أن ألطاف تتصل بها فعلًا. تعتدل نافضة عن جسدها طبقات الغطاء وإذ بالهاتف ينزلق من بين أصابعها، ويضيع في فوضى فراشها. تنهض وهي تكاد تصرخ. تقف على الفراش وترفع كل غطاء تنفضه بشدة بحثًا عن الهاتف كمجنون سقط عقله. تبعثر الأشياء من حولها، وتُسقِط الأغطية والوسائد على الأرض. ويصمت الهاتف.

ثم تعثر عليه بينما تظهر مريم على باب الحجرة وهي تراقبها في فضول.

تعاود الاتصال بأمها بينما ترتعش أصابعها، تشعر أنها تكاد تجن.

الهاتف مغلق!

تُطوِّح هاتفها بعيدًا بقوة الغضب واليأس، وتترك جسدها ينهار على السرير، تصرخ بقوة، بغيظ، تصرخ حتى يبحَّ صوتها فتفزع الصغيرة التي لم تبرح وقفتها بعتبة الحجرة.

رأسها مدفون بين قدميها تحاول استعادة هدوئها.

تطلب من مريم وهي تضغط على أسنانها وتحاول ضبط تنفسها إعادة الهاتف الملقى بطرف الحجرة تحضره الصغيرة، تجمع الصغيرة أجزاء الهاتف من أنحاء الغرفة ثم تناولها إياها، يكاد صبرها ينفد وهي تعاود تركيبه بأصابع مرتجفة، بمجرد أن تفتحه تتلقى إشعار برسالة جديدة.

الرسالة تخبرها أن هاتف ألطاف مفتوح. تكاد تسمع دقات قلبها وهي تعاود الاتصال. يصلها رنين يطرب له قلبها . تقف على الفراش، تقفز من عليه بلا وعيّ، تتجول محمومة في أنحاء الشقة.

من مكان ما في العالم يلامس صوت ما أذنها، ليس هذا بصوت أمها. يقينًا ليست أمها، بل امرأة لا تعرفها.

9

ثلاثة أيام قبل اختفاء ألطاف

حين اقتحمت مريم حجرتها هذا الصباح، كانت ألطاف شبه مستيقظة. اعتدلت في جلستها ثم مالت بجذعها تلتقط الصغيرة من على الأرض وضمتها بقوة، ثم رفعت صوتها تنده على مروة، فأخبرتها مريم أنها نائمة لا تزال، وانسلت من حضنها في تطوع مُرحب بإيقاظ أختها.

جرت الصغيرة صاخبة تقتحم حجرة مروة، بينما لم تبارح ألطاف فراشها لا تجد في جسدها قدرة حقيقة على استهلال يوم جديد، ذهنها على العكس كان منطلقًا يثب من فكرة إلى أخرى دون أن يستكمل أي منها حتى طرفها، تهز رأسها في محاولة يائسة لترتيب ذلك التشابك داخل عقلها والذي يذكرها بشعر مريم حين ترفض تمشيطه عدة أيام متتالية، ثم تضطر ألطاف إلى إجبارها على المكوث لتمشطه لها بعد أن يكون قد تشابك بالكامل. أه مريم ودَّت لو تضمها مرة أخرى دون أن تفلتها أبدًا، لو يكون يومها كله حضن مريم ولا شيء آخر!

اعـتدلت مــتثاقلة في فراشها ثم فتحت درج الكومودينو وسحبت منه مـفكرة صغيرة وقلـم، حــاولت ترتيب أفكارها بكتابتها، عـادت

مريم باكية تخبرها أن مروة نهرتها وأخرجتها من الحجرة.

- بتقول هي ظابطة الموبايل ومحدش يصحيها

نَحَّت مفكرتها جانبًا وحملت الصغير تهدهدها:

- تفطري بان كيك؟

ابتلعت البكاء دفعة واحدة وقامت تقفز وترقص مَرِحة، ثم شدت كف أمها كي تقوم حالًا فتعد لها الفطائر.

- على الحمام الأول يا مريوم، يلا...

- معنديش

- ماااريم؟ عاوزة بان كيك؟ يبقى على الحمام!

أخيرًا رفعت جسدها المثقل من على الفراش؛ أَكْسَبَها مرح الصغيرة شيئًا من الطاقة. في المطبخ وقفت تعد العجين،و ذهنها منشغل لايزال بأشياء لا علاقة لها بما تعِدُّه من فطور.

بعد أن شطَّفت مريم ورفعتها من على المرحاض طلبت منها أن تعاود الدخول على مروة فتخبرها أن تستيقظ لتتناول الفطائر ساخنة، رفضت مريم العودة لغرفة أختها بعد أن نهرتها قبلا فتوجهت ألطاف إلى الحجرة بنفسها بعد أن قدمت لمريم الفطائر في الصالة أمام التلفاز.

وقفت لحظات تتأمل مروة نائمة وقد دست جسدها بأكمله أسفل الغطاء كما ينام رضوان، تفكر كيف أن مروة استطالت

دون أي تدخل منها ولا فائدة ترجى من طولها، لماذا لم يكن الأمر ببساطة عكسيًا، فتشب مروة فتاة متوسطة القامة رقيقة الطلعة، ويصير فارس شابًا طويل القامة فارعًا. دون مجهود منها كما يجب أن تكون طبيعة الأمور. لِمَ تضعنا الحياة في مواضع تفرض علينا قرارات نندم عليها في ما بعد؟ هل تحبها؟ الغريب أنها لا تشعر تجاهها بالنفور الذي توقعت أن تشعر به حين جاء بها رضوان رضيعة، تأهبت لأن تنغرس بداخلها بذرة الكراهية، ثم تنمو مصاحبة لنموِّ الطفلة، إلا أن مروة لم تمكنها من ذلك، منذ أن كانت صغيرة وهي تمد لها يد العون قبل أن تطالبها ألطاف بذلك، لم تكن مدللة كفارس أو عنيدة كمريم! تقلبت مروة في فراشها أخرجت رأسها من أسفل الغطاء فرأت ألطاف واندهشت من وقفتها على تلك الحال!

- في إيه؟

- مفيش يلا قومي عاوزاكي ضروري..

ارتبكت ألطاف حين أفاقت من أفكارها على وقع نظرة مروة، كأنها كانت تتلصص عليها، في تلك اللحظات بالذات تشعر كم هم غرباء، فهي ليست أمها، حقيقةً تخجل من أن تراها عارية مثلًا أو أن تراقبها في نومها، كادت مروة أن تغضب وتعود للنوم لا مبالية لكن رؤيتها لألطاف منتصبة قرب فراشها تتأملها في صمت أربكها، ترى ماذا رأتها تفعل؟ بماذا كانت تحلم؟ لا تتذكر أنه كان حلم مبتذل، لكنها شعرت أنها مذنبة، لطالما أحست أن

ملامح ألطاف مرآة تعكس مشاعرها بالخزي، وتكشف مواضع الانحطاط فيها، هي مشاعر الذنب متجسدة في هيكل ضخم، قامت تتبعها تودُّ لداخلها أن يطمئن فيهدأ، هل عثرت على علبة سجائرها مثلًا؟ قبل أن تخرج من الحجرة اطمأنت أن العلبة مستقرة في قاع حقيبتها، هل نست مروة عُقْب سيجارة في الحمام؟ تبعتها مضطربة تدعي الضيق من إيقاظها، وتحمل أمواجًا من القلق بداخلها، لم تعبأ بالإفطار الصباحيّ المختلف، وأدعت التأفف هروبًا من توترها.

- في إيه على الصبح؟

أشارت لها ألطاف بحزم أن تتبعها إلى غرفتها، فجاءت مروة طائعة كارهة، لا تزال تخشى غضبة أمها ونظرتها الحازمة، هي توفر استخدام كارت (أنتِ أصلًا مش أمي) من أجل أمر جلي، أمر يهمها حقًا. وحين تفعل، تشعل بالبيت نارًا لا تنطفئ بسهولة.

في الحجرة جلستا أمام دولاب ألطاف، فتحته وأخذت تسحب من ضلفته السفلية عدة حقائب، ثم شراشف مطوية بعناية فائقة وخلفهم ظهرت خزانة حديدية صغيرة تعرفها مروة جيدًا، حيث تخبئ داخلها ألطاف حليها الذهبية ولها رقم سريّ لا يعرفه أحد سواها!

تململت مروة، ثم سألتها وهي تتثاءب:

- في إيه بقى؟ عاوزة إيه؟

- اخرسي وركزي، أرقام الخزنة «2295». سامعة؟ 2295 النهارده حسحب المعاش كله وححطه فيها.

- ليه؟

- علشان الكارت حيأكسبيرد كمان يومين ومعرفش تجديده ياخد وقت قد إيه.

- وأنا مالي!

- مالك إيه يا حيوانة؟ الفلوس كلها حتكون هنا لو جه محصل الكهربا ولا النور وأنا برا؟

- طيب طيب. ماشي ماشي...

- كام الرقم؟

- نسيت.

تنهدت ارتياحًا حين أدركت قصد أمها، لم تعبأ بأمر النقود والخزانة والرقم السري، سحبت نفسًا طويلًا إلى صدرها وقد انتبهت إلى أنها لم تكن تتنفس منذ أن أخرجتها ألطاف من فراشها.

خلال يوم ثالث بلا ألطاف

2295، كيف لم تسأل أمها عن ماهية هذا الرقم؟ هل له معنى؟ ليس تاريخ ميلادها، ولا زواجهما هي ورضوان، كما إنه ليس تاريخ ميلاد فارس ولا مريم ولا هي بالطبع!

تفكر في الرقم وتستعيده مرارًا وقد عادت تنزوي في حجرتها بعد أن حاولت الاتصال برقم أمها فلم تنال إلا خيبة أمل كبرى! كانت ألطاف تكذب عليها، كانت تُعد نفسها للرحيل، لذا سحبت معاشهم لهذا الشهر بالكامل في أوله وأطلعتها على رقم الخزانة وصممت أن تحفظه مروة، بالطبع لم تحفظه لكن سجلته على هاتفها، تلك الذكرى تشعلها غضبًا، أنها كانت تستعد للرحيل، كانت تكذب، والأسوأ أن مروة لا تعرف لقرار ألطاف سببًا مقنعًا.

منذ أن وعت مروة على عالمها الصغير الأول، وهي ترى العلاقة المتوترة بين ألطاف ورضوان، شجارهما الذي لا ينقطع، ليس هذا بسبب! لماذا الآن؟ وإلى أين؟ وكيف تعيش؟

انزلقت مروة في فراشها أسفل طبقات الأغطية، لا تريد أن تلمح من العالم صوتًا ولا نورًا، تود لو تختفي أيضًا، لو تختفي مريم وتصمت، لو يختفي العالم ويصمت.

10

كانت ألطاف ابنة أبيها الوحيدة، والصغيرة على صبيان. ثلاثة أحاطوها بالتدليل وجعلوا منها أميرة في المنزل، حين خرجت للعالم فتاة بلا أُمٍّ؛ لا تعرف كيف ترتدي ملابسها أو تسوي شعرها، رُمِيَتْ في سنوات دراستها المدرسية بالقبح، فانطوت على ذاتها ووضعت طاقتها في الدرس والتحصيل، حتى صارت أثيرة لدى مدرسيها، غريبة الأطوار بالنسبة لأترابها.

ذلك الصباح خلال عامها الدراسي الأخير، حين طرق أبوها باب غرفتها، كانت ألطاف شبه مستيقظة، لا تشعر أنها أصابت من ليلتها الماضية نومًا، غلب الترقبُ خدرَ النوم، تقلبت ليلتها تشتهي نومًا يأتي بالصباح المُرتقب، ليس فقط أنها ستراه وتسمعه، ينظر إليها ويبادلها النظر، بل سيتحدثان وحدهما وعن قرب.

في المدرسة ثمَّة نشاط اختياري هو أن يؤدي الطلبة بضع اختبارات على مدار ثلاثة أيام، ثم اليوم الرابع يجلس معهن مشرف كل واحدة على حدة؛ ليحدثها عن نتائج الاختبارات ولأي اختيار جامعي ومهني تؤهلها.

ما جذبها للنشاط ليس رغبتها في معرفة مؤهلاتها - رغم أن ذلك أيضًا بدا مثيرًا على نحو ما - ولكن أن عرفت أن المشرف

الذي سيرشد الطالبات هو نفسه مدرس اللغة الفرنسية «مسيو بكر»، وهي تحب مسيو بكر، تحبه وهي تعرف أنه مدرسها وأنه متزوج وأن ابنته في فصول الحضانة بنفس مدرستها، بل هي تحبه وتحب طفلته وتشعر بالغيرة وبعض الحب تجاه زوجته التي رأتها عدة مرات خلال رحلات أو حفلات المدرسة، غيرة نعم وحب سينمو لو وافقت أن يتشاركا نفس الرجل، فرجل جميل وزكي وخفيف الظل كبكر كثير جدًا على امرأة واحدة.

اليوم يجالسها، يحدثها عن إمكانياتها ومواهبها ومؤهلاتها، يشتعل وجهها خجلًا ويطال الاحمرار أذنيها فتبدو في عيونه خجلة جميلة، لن تدعي الخجل بالطبع فهي تشتعل خجلًا بالفعل كلما طالعها في الفصل، إن سألها سؤالًا يمتزج الخجل بالسعادة وينحبس صوتها وتسجل اليوم والساعة والدقيقة على أي ورقة يطالها قلمها ثم تحتفظ بهم كلحظات مميَّزة بحياتها.

اسمها الذي لطالما كرهته ستحبه اليوم لأنه سيُدخِلها عليه مبكرًا، لن يطول انتظارها حتى تخلو إليه. لربما ستحدثه أيضًا في معرض الكلام عن رغبتها في تغيير اسمها، تسأله عن الإجراءات، قد يعرض عليها أن يساعدها فتراه أكثر، وتخلو إليه مرات أخرى، يا الله!

على مائدة الإفطار لم تتـمكن من ابتلاع شيء، كما عجزت عن النوم الليلة الماضية، يراقبها أبـوها قلقًا علـيها، في الفترة الأخيرة ازدادت نحولًا وبان طولها وبرزت عظامها، يظنها خائفة من

اقتراب موعد اختبارات الثانوي العام، أي تحديد مصير مستقبلها كله، لا يعرف أن «بكرًا» قد ألمَّ بها، وأن نحولها سعادة صافية.

هي تبرر حالها بطول ساعات المذاكرة وتقبل رأس أبيها وتطمئنه، مؤخرًا خلا البيت عليهما بعد زواج إخوتها الثلاثة وتوثقت علاقتهما حيث أن ألطاف لم تبدِ من علامات المراهقة كراهية الأب، لم تمارس من مراهقتها إلا حب صامت لبكر.

أمام الحجرة المخصصة لنتائج الاختبارات تجمع عدد كبير من الطالبات، لم تكن المراهقة الوحيدة التي تحب بكر على ما يبدو أو أن الاختبار كان للطالبات على هذا القدر من الأهمية، الفتاة الواحدة كان يطول بها الوقت في الداخل إلى ما يقرب من نصف ساعة، هذا لم يضايق ألطاف كثيرًا، فمعناه أن تمكث أيضًا معه نصف ساعة، قالت إحدى المشرفات إنه ربما سيحتاج للانتهاء من الجميع إلى ثلاثة أيام، وعلى البنات ذوات الأسماء بحروف في نهاية الأبجدية الذهاب إلى منازلهن عوضًا عن انتظار بلا طائل. لم تهتم ألطاف كثيرًا، فاسمها يبدأ بالألف، وبالتأكيد ستقابله اليوم.

وقفت صامتة لا تحدِّث أحدًا ولا تنصت إلى ما يدور حولها، تتخيل ملامحه، تتخيل جلستها أمامه، ابتسامته، لوحاتها وهو يتأملها منبهرًا، ثناءه على موهبتها في الرسم، عيونه البنية الواسعة المظللة برموش مائلة.. يا ألطاف!

- إيه!

انتفضت على وقع نداء أميرة والذي بدا أنه ليس النداء الأول، كدَّرها أن تسقط عن رأسها إلى ضجة الواقع، صفوف الفتيات وثرثرة أميرة، قالت لها إنه سيطول بهن الوقوف فلتذهبا لإحضار شيء يؤكل من الكانتين بحديقة المدرسة، تململت ألطاف رافضة، ثم شعرت بنفاد صبرها وثقل الانتظار، جيد أن تشغل ذهنها بعض الشيء. عند زحام الكانتين أصابتها موجة عارمة من الندم، كانت مضطربة نافذة الصبر، قد يبلغون دورها بينما تنتظر هنا، تلفتت حولها في ضيق تحاول إقناع أميرة المحشورة بين زحام الفتيات بالتخلي عن الفكرة، أميرة تخرج بظهرها مدفوعة بفعل الزحام، تحمل زجاجتين من الكوكاكولا، تصطدم بألطاف التي كانت تنظر نحو مدخل المبنى مضطربة فتندلق زجاجة الكوكاكولا على قميصها المدرسيّ الوردي.

قبل أن تتوجه ألطاف إلى المرحاض لإزالة البقعة عن قميصها، أكدت على أميرة أن تقف هي قبالة القاعة حتى إذا اقترب دورهما تأتي إليها مسرعة.

حين وصلت أميرة إلي القاعة، سمعت المشرفة تنادي «ألطاف محمد فاروق». اندهشت أن يأتي دور ألطاف بهذه السرعة، سارعت تخبر المشرفة أن ألطاف بالمرحاض وأنها ستهرول لاستدعائها حالاً.

- لأ، يلا خشي أنت.

- مدام هي هنا بسرعة مش حتتأخر.

- تدخلي يا حدخل اللي وراكي مفيش وقت.

اضطرت أميرة إلى الدخول، وعلمتا في ما بعد أنهم يتخطون أدوار مَن لا يجدونها أمام القاعة، لربما يعودون إليهم بعد الانتهاء من الجميع.

لم يعودوا إليها مطلقًا؛ لأن الوقت لم يسمح..

لم يأتِ دور ألطاف قط، كما كانت نهاية علاقتها بأميرة.

انتهت قصة حبها لمسيو بكر حين انتقلت للجامعة لترى الفتيان هناك جذَّابين، صغار وغير متزوجين، مملوئين بالشغف تجاه البنات، يمارسون حبًّا ساخنًا ومندفعًا، تنصت إلى قصصه من زميلاتها، وقفت في ساحة الجامعة سنوات تتنظر دورها في تلقي مثل ذلك الحب، إلا أنها بلغت عامها الأخير دون أية علاقات برجال، كانت ترى نظرات إعجاب الفتيان بالفتيات وتنتظر أن يرميها أحدهم بنظرة مماثلة بلا فائدة. تتفرج على العلاقات وتسمع عنها دون أن تخوض مثلها. وباعتبارها فتاة كانت أميرة على أربعة رجال بالبيت، أصابها ذاك في صميم كرامتها، وأيقنت أنها بالفعل قبيحة، وأن الأمر بالمدرسة لم يكن مجرد غيرة بنات.

حتى ظهر طارق في حياتها ليكون أول تجربة جسدية غير مكتملة، وتجربة حب لم ترقَ إلى الزواج، فتركت جسدها عَطِشًا وروحها مظلمة تتخبط باحثة عن طاقة نور. ثم أتى رضوان وانجذبت إليه انجذاب الحشرات للضوء ولو كان سيقتلها.

جاء رضوان منزلها بوجبة ساخنة بعد أخرى، كان سريعًا لا يتأخر عليها، معه لم تضطر قط إلى أن تتواصل مع قسم الشكاوى بالمطعم، وفي عيني رضوان، رأت أخيرًا ما بحثت عنه طويلًا.

نظر لها كما ينظر رجلٌ لامرأةٍ يشتهيها، كان ناضجًا يكبرها بثمان سنوات، ليس شابًا محاطًا بالبنات مثل طارق. قصر قامته أوحى لها بقدرتها على السيطرة عليه والاستئثار به عمرًا، بدا حبل نجاة من العنوسة والوحدة التي ظنت أنها وقعت في براثنها حتى الموت.

كان أبوها قد مات وإخوتها تزوجوا. لم تعتَدْ أن يرفضوا رغباتها، وزوجاتهم أقنعوهم أن أختهم عانس؛ فليرضوا بأي رجل ولو كان من طبقة اجتماعية أدنى منهم.

حين شَقتْ الحياة على ألطاف بصحبة رضوان، اتفقا على طلاق ورقيّ يجعل لها حقًا في معاش أبيها الراحل، ويبقيان معًا. كان لا يزال بينهما حبٌ في ذلك الوقت.

ظنت ألطاف من منطلق تاريخها أنها حتى لو تركت رضوان الذي ما زال يرغب فيها، فلن تجد رجلًا بعده. تسأله وتعيد سؤاله لو يراها جميلة. بالطبع في البداية كان يراها جميلة، لكنه وجد أيضًا في السؤال موضع ضعفها. في ما بعد رماها بالقبح، فأتقن التصويب.

لأن رضوان قصيرٌ جدًا، فله أيضًا موضع ضعف لطالما نفذ منه

زملاؤه وأصدقاؤه. ولأن لا بُد له من مخرج، فقد أتقن فنون إغواء النساء، وتعلم جيدًا كيف يجعلهن يحبونه.

أم مروة وقعت في براثنه، حين ضبطها تتبول بماء غسيل الأرض في بيت ثريّ. فوجئت به أمامها، فرفعت لباسها الداخلي وأنزلت جلبابها، ثم جذبته نحو صدرها وهي ترجوه ألا يفشي سرها.

لم يكن بحاجة لأن يسألها عن سر ما تفعله، فأمه أيضًا عادت تخدم بالبيوت بعد موت أبيه. لم تكن أمه لتكتفي بمعاش زوجها الراحل الهزيل دخلًا لمنزلهم، كان يراها تفعل ذلك حين صحبته معها طفلًا. «علشان ما ينقطعش عيشنا من البيت ولا يبدلونا، لازم نسيب ريحتنا».

11

صباح يوم رابع بلا ألطاف

من أجل الاستمرار، لا بُد من الحرص على عدم كسر الدائرة.

تتخلق الدائرة وتكتمل بالنقود؛ لو توقف مصدرها، سيسقط فارس من علٍ وهو طويل نحيف وهش، وكسره يسير. أدرك أن اختفاء ألطاف صار يلقي بتبعات قاسية عليه.

نعم كانت شوكة في حلقه، لكنها لا تقطع عنه التموين رغم كونها مزعجة. ورضوان أنانيّ ينفق كل دخله على ذاته فقط، دون اعتبار لأحد غيره.

قد يتمكن فارس الليلة، على ضوء الشموع الأخيرة المتبقية من تموينه، أن يكتشف مع زاهر منبعًا آخر للنقود. السرقة تبدو فكرة مغرية إلا إنها خيالية إلى حد كبير، وهو عليه أن يكون واقعيًا.

يرجئ فارس التفكير إلى المساء، مع خيوط اللذة وانفصال العالم وذوبان القيود، واقتراب الأشباح حتى حافة رأسه العارية ليستوثق من ملامحها فلا تعود مخيفة خلال ستار الليل الحنون.

ضوء النهار كاشف للتفاصيل القبيحة، أما الليل فجميل.

تتلقى مروةُ غاضبةً دفقاتَ واقعها كما هو، رضوان يطالبها بأن تتولى مسؤوليات ألطاف، فتحل محلها بالكامل. ظلت تستنشق تفاصيل غياب ألطاف، حتى اختنقت به كليًّا.

مريم أيضًا ملتصقة بها، ترى فيها ألطاف جديدة، وهي لا تزال متلبسة بالإنكار, تراجع التفاصيل، ثم تعاود مراجعتها. تتصل بالأقارب الذين سبق وكلمتهم، وتبحث في نفس الأماكن التي سبق وبحثت فيها.

الكثير من الوعيّ مهلك، لو لم تكن بتلك الجدية لدعاها فارس إلى إحدى ليالي الحشيش شفقة بها.

يرى فارس أن عليهم التوقف عن العبث، وتتبع الخيط الوحيد الذي التقطوه، بمحض الصدفة، من تلك السيدة التي كلمت مروة من هاتف ألطاف، ذلك هو السؤال الذي سيقودهم إليها. جعل مروة تظن أنه أخيرًا صار مثلها قلقًا على ألطاف أو يفتقدها. جميلٌ أن مغاليق العقول لا تتعرض للاختراق، وإلا أصابتنا أمراض الانفصال التام عن إنسانية بعضنا البعض.

في الليلة الأولى لاختفاء ألطاف، كاد فارس أن يبكي من فرط السعادة حين عثر على حقيبتها ملقاة بقلب الصالة، رأى بداخلها الحافظة الجلدية فنزعها بخفه ودسها في جيبه. لم يلحظ رضوان ومروة فعلته، فشعر بنشوة المنتصر خلال غفلة الأدنى منه واقعية وتركيزًا على المهم من الحدث.

لأنه في حقيقة الأمر، لا يهم من ألطاف إلا استمرار إدرار النقود، وهو ظن أنه قد استفرد بالكنز له وحده، بينما تركهم يظنون أن ألطاف قد رحلت ومعها حافظتها الجلدية القديمة التي تبقيها داخل إطار رؤيتها، أو ملتصقة بجسدها خلال غفوتها. كانت ألطاف قد اتعظت بعد أن غفَّلها رضوان مرات عدة، ليستل الكارت ويُصفِّره، ويتركهم بلا مليم حتى نهاية الشهر.

كانت مفاجأة له، وتفصيلة لا يهمه معرفة سببها، أن تذهب ألطاف دون حافظتها، نشوة لذيذة اجتاحته، كأول دفقة دخان تتخلل صدره، وهو يستل الحافظة.

وفي نفس تلك الليلة انقشع الدخان وهو موجود أمامه؛ لأن الحافظة خالية من كارت البنك!

ألطاف المزعجة كذباب الصباح، عليه أن يعرف أين ذهبت الآن، بل وأن يرجع بها.

أن يستدعي المرءُ الهمَ لنفسه بنفسه، بنت الكلب الدنيا تتلاعب به كما يتلاعب القردلاتي بقرده ليُضحك عليه الخلق، إنسان يبحث طوعًا عن قيده، ألاعيب الحياة معه وسخريتها منه لا حدود لها.

حين أخبرته مروة عن الاتصال الهاتفي الذي وردها من سيدة مريبة تقول إنها صديقة ألطاف، وإنها قد أمضت في بيتها ليلة ثم اختفت قبل طلوع النهار تاركة هاتفها، شعر بالغضب أولًا من غباء مروة؛ كان عليها ألا تغلق الخط قبل أن تحصل على

رقم هاتف تلك السيدة وعنوانها، تركت خيط سهل يتفلَّت من بين أصابعها. إلا إنه في ما بعد كان يفكر في إمكانية تتبع الهاتف المغلق إلى بيت تلك السيدة.

- حنعمل إيه برقم الست إذا ماما اختفت من بيتها وسابت موبايلها؟
- متخلفة وحمارة أقسم بالله، إحنا عارفين مين الولية دي؟ وألطاف كانت عندها ليه؟ وسابت إيه تاني هناك؟ محفظتها مثلًا؟!

نعم رضوان ومروة لم يعرفا أن الحافظة الجلدية بصحبته، وبذكره الحافظة يفكر في كارت البنك، ومروة لم تورِّثها تلك المكالمة الهاتفية إلا إحباطًا، أن تترك ألطاف هاتفها في بيت سيدة مجهولة يعني انقشاع الأمل الأخير الذي كانت تتعلق به؛ أن تفتح ألطاف هاتفها أخيرًا وتخبرهم عن مكانها. وصار الحوار مع فارس لا يزيدها إلا غضبًا، لا طاقة لديها في مشاجرته. تنسحب من النقاش مغلقةً باب حجرتها خلفها، وتعود إلى فراشها حيث غدت منذ اختفاء ألطاف تمكث فيه أغلب ساعات يومها، تستسلم لساعات النوم المضطربة هروبًا من الشعور بالتوهة الذي اجتاحها مؤخرًا ولا تدري له سبب، عالمها لم يكن مقتصرًا على ألطاف، إنها لا تفهم بالضبط ما الذي حل بها، غير قادرة على اتخاذ قرارات تحررها من هذا الجمود.

12

أربعة شهور قبل اختفاء ألطاف

مستلقية على فراشها نصف نائمة، تستشعر حركة رضوان خلف جسدها، بينما رقبتها تنادي على شفتيه لتحتويها في قبلة دافئة مدغدغة، تلك القبلة التي لن تأتي أبدًا. صار رضوان في كامل ملابسه استعدادًا للخروج. كان يتفوه بالحب ولا يعرف كيف يمارسه، كما لم يعرف طارق من قبل. ستحمل رقبتها أثرَ رحيله البارد، كما يحمل جسدها عشرات الآثار الأخرى. كم تأسف أحيانًا لكونها لا تجد ميلًا تجاه جنسها من النساء، تشعر أن السيدات سيكونَّ أمهر في الحب، الرجال فاشلون فيه! لو عثرت على امرأة في جسد رجل ستكون الشريك المثالي لما تبقى من حياتها.

كان العداء التاريخي بينهما في البداية، يُحَلُّ مساءً خلف الباب المغلق، متواريًا عن أعين الأطفال الذين حضروا الشجار ثم لم يشهدوا الهدوء الذي تلاه. منذ البداية كانت علاقتهما الجنسية متناغمة، خلالها تنسى ألطاف قصرَ قامته، تغمض عينيها ولا تحاول استحضار ملامحه، فقط الشعور بجسده، بكفوفه وهي تستخرج منها لذَّةً يستطيع إطالتها قدر ما يرغب وترغب، كان متمرسًا حقًا في المتعة الجنسية، لم يكن رجلًا يفعلها لقضاء

حاجته وكفى، إنما يهتم صدقًا بإمتاع المرأة بين يديه.

حين ظهرت سيدة - أم مروة - في حياة رضوان، استشعرت ألطاف تباعده عنها، وغدا شجارهما لا ينقطع في الليل، بل يتصل لأيام وليالٍ. لم تكن الخيانة الأولى، لكنها كانت الأقوى. شعرت أن خيانته تلك المرة ليست مجرد علاقة جنسية يُجرِّب رضوان خلالها جسد امرأة جديدة، وإنما داخَلَها عشقٌ، والعشق بالنسبة إلى ألطاف هو الخيانة الحقة. شعرت بالحنق على نفسها قبل كل شيء، أين هي من البنت التي كادت تصيب حبيبها بالعمى حتى لا يرى بنتًا غيرها؟! حياة رضوان، أمه وأسرته البائسة، توغلوا داخلها حتى جعلوا منها شيئًا لا تعرف كنهه؛ غضب على نفسها، وغضب عليه وعلى أسرته وطبقته الاجتماعية بأسرها، حتى أنها غضبت على إخوتها الذين سمحوا لها بمثل تلك الزيجة البائسة. حين اتخذت إجراءً صارمًا بترك البيت إلى بيت أهلها القديم في العجمي عدة أيام، اضْطُرَ رضوان إلى قطع علاقته بسيدة، رغم حبه العميق وانجذابه الشديد نحوها. بعد عدة أشهر جاءت سيدة برضيعة قالت أنها من صلبه معلنةً عجزها عن إعالة الطفلة، فهي تعيل خمسة غيرها بالفعل. لم يتردد رضوان للحظة في ضمِّ طفلته إلى كنفه، أحب أن يكون له أثر من سيدة؛ كان قد أحبها حبًّا خالصًا، لا تخالطه مصلحة مثل حبه لألطاف.

مؤخرًا صارا يتعاملان مع نفسيهما باعتبارهما كهلين، ليس من المنطقي أن يكون ما يجمعهما حبًّا أو جنسًا؛ فقط بيتًا مفتوحًا

وأبناءً بلغوا سن المراهقة بمشكلاته الجَمَّة. لكن ألطاف التي قاومت الانهيار سنوات عدة، شعرت أن قطع الزجاج المتهشمة داخلها صارت تمنحها جروحًا تعجز عن احتمالها أكثر من ذلك، وعلى شفا الانهيار وجدت نفسها تتمسك به دون غيره.

حين صحا رضوان من نومه ليستعد لسهرته المسائية المعتادة، أحست ألطاف حركته داخل الغرفة، فدخلت وأغلقت الباب خلفها. رمقها مندهشًا، وكان في طريقه إلى الحمام فحجبت عنه المسير. أمسكت بكتفيه ودفعته هونًا ليجلس على الفراش، لم يكن قد صحا تمامًا لكن حواسه انتبهت وزحف غضب مختلط بالدهشة من تصرفها، هل ترغب في الجنس الآن مثلًا؟ والأطفال مستيقظون بالخارج؟ هل جُنَّت؟ مرت أعوام طويلة صارت علاقتهما الجنسية خلالها قضاءَ حاجة؛ تحدث كل عدة أشهر بعد عودته فجرًا. كان يدفعها بعيدًا ويغضب عليها، لكنها مسحت بكفها على وجهه، تود أن تُسكِت الغضبَ داخله كي يسمعها، حركة كفيها على وجهه لم تزده إلا يقينًا بأن المرأة قد جُنَّتْ، وأنها تريده الآن، فدفع بكفيها بعيدًا وهو يزعق:

- فيه إيه؟

- لحظة بس، مش حأخرك، محتاجة تسمعني!

تثاءب عاليًا وأخرج ريحًا بصوت مسموع، كأنه ينفِّرها منه. تأملتْ وجهَه الصغير، المحفورة بشرته، شعره الهائش حوله في كتل سوداء قبيحة، وأذنيه الصغيرتين جدًا التي لطالما ضايقها

شكلهما، وشعرت بالنفور فعلًا حتى أنها كادت تتراجع عما عزمت إخباره به. منذ أشهر طويلة وهي تفكر في كيفية فتح هذا الحوار معه؛ الأسبوع الماضي كله لم تفكر إلا في ذلك الأمر: حبًّا أو رحيلًا!

لِمَ تتمسك به كل هذا القدر؛ التساؤل يكاد يفقدها عزيمتها، لكنها أصرت على الاستمرار.

ارتسم الامتعاض على ملامحه، كاد يقوم من مجلسه أمامها وهو يتأفف.

- طب بعدين بقى.. هَه؟

أبقته بضغط كفيها على كتفيه، فحركهما نافرًا متضايقًا.

- اسمع محتاجة أعرف دلوقت حالًا رد على السؤال ده، أنت لسه بتحبني؟

شخر شخرة طويلة خرجت حقًا من أعماقه، تبعها بضحكة جافة وكاد يتبعها بكلمات قاسية عن كونها خرَّفَتْ؛ لكنها لم تمنحه المساحة، سحبت جسده نحوها ثم ضمته كأنه طفلها، وضعت رأسها على كتفه، وبكت بحرقة بينما كان يشعر بارتجافة صدرها.

- أنا حامشي، حامشي فعلًا ومش راجعة المرة دي يا رضوان، اسمعني من فضلك، مش عاوزاك تنام معايا، مش طالبة منك

تغير حاجة في حياتك، يا بتحبني يا لأ محتاجة أعرف، لازم أعرف، أنا بموت كل يوم، باكل ومابحسش بأي شبع، باشرب ومابرتويش، لازم أعرف، مش هاممني الولاد ولا البيت، ولا الحياة نفسها، لو بتكرهني قول!

ما حصل لجسده كان غريبًا حقًا، ليست ردة فعل جنسية تجاه انجذابه لجسدها الذي صار مؤخرًا لحمًا على لحم حتى غدت تضاعفه حجمًا بطولها وعرضها، لكن شيئًا ما في ما قالته؛ نبرة صوتها، شدة انكسارها، مخاوفه واعتماده عليها ربما. دفع جسدها عنه دفعًا هينًا، وظنته يتركها، فانهارت على الفراش في نحيب متصل. لكنه توجه بخفة نحو باب الغرفة، أغلقه بالترباس وعاد يجردها من ملابسها قطعة بعد أخرى كما في الماضي، كان بالفعل منتصبًا لكنه مارس معها جنسًا حنونًا شغوفًا، وليس قضاء حاجة كالسنوات الماضية. تمتع وأمتعها. واكتشف في نفسه انجذابًا جديدًا نحو جسدها الضخم. حين انتهيا وتمددا معًا على الفراش، تبادلا تدخين سيجارة واحدة كالأيام الخالية. أخبرها بصوت حنون أنه حقًا وصدقًا لا يزال يحبها.

يتفوه عن الحب ولا يعرف كيف يمارسه! منذ تلك الليلة البعيدة، حين تصارحا ومارسا حبًّا قديمًا، غدت تعاود السؤال عن مقدار حبه لها وهو يؤكده، لكنه عاد إلى عاداته القديمة رويدًا، وندر الحب بينهما مرة أخرى.

الليلة، وهي تتوق إليه وتشعر بالثقب الذي سيتركه رحيله

الجاف بجسدها، كان رضوان يراها أيضًا خلاف ما تظن، صنعت عينيه الفجوة الراغبة برقبتها، لكنه راجع ساعة يده، - بينما تلتقط أنفه رائحة الدفء منبعثة من فراشهما، فقرر مقاومة انجذابه ببرودة يستخرجها من أعماقه، لأنه ماضٍ إلى عمل وهي تظن أن عمله لا قيمة له ما دام لا يضع بالبيت مليمًا، لكن قيمة عمله تعود عليه بالنقود التي يحتاجها من أجل سجائره وحشيشه وفتيات الليل أحيانًا، لذا أصرَّ على مقاومة انجذابه نحو الاندساس بجانب جسدها الدافئ الأليف؛ ليخرج نحو عمله الذي حقًا صار يمقته. اندفع خارجًا تاركًا خلفه أثرًا من ريح امتعضت منه وكرهته.

13

طارق حبيب ألطاف الأول

للخيانة أشكال عدة لم تدركها ألطاف إلا بعد أن اختبرت كيف تهدأ نفسها الثائرة وتمتلئ حين يبادلها أحدهم الحب فتخشى كالموت أن تفقده قبلًا، الممتع في نوع الخيانة الذي تمارسه الآن أن أحدًا لن يستطيع إدانته، ها هما ذانِ، هي وطارق، مُحبان في ما يبدو له، لكنها تتعلم الآن في أثناء العلاقة كيف تتخلص من ارتباطها به، كيف تطرده عن كيانها كله، هي تتعلم ذلك وهو لا يدري شيئًا.

حين تنجح خطة انفصالها النفسي عنه فتتركه فجأة لن يكون قرارًا عاطفيًا متسرعًا كما سيبدو له، ستكون قد درَّجت مشاعرها أن تتخلص منه، كما أرادت من قبل أن تخلصه من عينيه ثم كفَّت أخيرًا شاعرةً بالذنب.

كادت تصيبه بالعمى التدريجي دون أن يُدرك ما يحدث له بالضبط، كانت تُفرِغ نصفَ وعاء قطرته، ثم تملأها بالمنظف التي تستخدمه الخادمة في المطبخ، وهو لا يدري، كما لم يدرك طبيبه سبب فقدانه السريع لبصره واضطراره إلى تغيير عويناته كل عدة أشهر!

التقت بطارق في المركز الثقافي البريطاني حيث كانت تَدرس اللغة الإنجليزية بعد الجامعة، كان الشاب الوحيد في مجموعة صغيرة من اثني عشر طالبًا، وسيمًا صاخبًا وهي خجول صامتة، قبيحة كما كانت ترى نفسها في ذلك الوقت. لم تجرؤ حتى على إطلاق أي نوع من المشاعر نحوه. لكنه لسبب لم تفهمه قط، أبدى نحوها اهتمامًا. بادرها بالكلام، وطلب بريدها الإلكتروني كي يتحادثا من خلال الماسنجر. منحها القدرة على التفكير فيه، فأطلق من داخلها فيضانًا. هدم السد، ثم ها هو يوزع اهتمامه على أُخريات أيضًا، وفيض مشاعرها الذي أطلقه بالتأكيد كان فيه غضبًا أصابه هو بالذات؛ لأنه كان فرصتها الأولى التي ظنتها الأخيرة. حكى لها عن علاقاته السابقة ببساطة أفزعتها؛ هو يتنقل بين الفتيات كمن يغير حذاءه كل عام! علَّمها كثيرًا عن العلاقات، كما أنه علَّمها كيف تُقبِّله، وكيف يمتعها وتمتعه دون أن تفقد عذريتها. ما لم يدركه أنها أرادته لنفسها فقط، لم تطِق أن ينظر لغيرها، كرهت صديقاته الكثيرات. لو حرمته من النظر لن يستطيع تغييرها إلى فتاة أخرى بحلول العام القادم؛ هكذا قررت أن تفقده بصره.

حين اقترب من العمى الكامل صار نكدًا كثير الشكوى، وهي التي كانت تفقده بصره كي لا يرى فتاة غيرها، ويقع في حب أخرى، صارت تشعر بالنفور من نحيبه وعويناته السميكة التي تجعل من عينيه نقطتين صغيرتين بوجهه كأنهما رسم كارتوني لطفل! لكنها لا تزال غير واثقة من قدرتها الحقيقية على تركه،

فجسدها لا يزال يحبه ويحتاجه، كما أن وجود حبيب بحياتها أمر بدأت تعتاده حقًا، وليس من السهولة التخلي عن ذلك. لذا خطر لها أن تمارس ذلك النوع الخفي من الخيانة، أن تُبقي على العلاقة بينما تفصل مشاعرها عنه رويدًا دون أن يدري هو شيئًا.

كانت تظن حين قررت إفقاده بصره، أنه من الممتع الاعتناء به كفيفًا، سيكون لها كليًّا، معتمدًا عليها، احتياجه لها مُلِح، وقبول أخرى بعجزه شبه مستحيل. فلما كاد يفقد بصره، وكادت هي أن تنتهي من عملية خيانته السرية بمحاولة رؤية عيوبه فقط، وتدريب نفسها على البعد عنه وكراهيته، تركها وسافر، هكذا فجأة وببساطة، قال إنه سيبحث عن علاج لعينيه بالخارج، وليست المشكلة في سفره؛ لأنه سيرجع ويمكن لعلاقتهما أن تستمر، لكنه قرر قطعها، هكذا وعلى حين غفلة منها أصبح قراره هو لا قرارها ليتركها غاضبة، محطمة وبائسة.

14

أحاطوا برضوان صانعين دائرة مرتفعة من أجسادهم، سورًا بشريًّا. لم يضربوه أو يتحرشوا به مطلقًا، كانوا يكتفون بمحاوطته غير تاركين فرجة ينفد منها. يتناولون شطائرهم، يتبادلون الحديث والنكات بشكل طبيعي، يحجبون عنه الهواء إلا من أنفاسهم، ورائحة أجسادهم. إن تراهم من الخارج لن يبدو في الأمر شيئًا مريبًا، فقط شلة من الأولاد في تكتلهم الطبيعي خلال وقت الفسحة المدرسية! مستحيل أن تُدرك وجود رضوان قصيرًا هزيلًا في وسط الدائرة.

عليه ألا يشتكي، وألا يبكي. حاول عدة مرات أن يتجنب حصارهم الدوري داخل سور أجسادهم ولم يفلح، حاول تطوير استراتيجية خاصة به؛ أن يعتبر نفسه جزءًا من شلتهم فيبادلهم الحديث، إلا أن صوته الرقيق كان يضيع وسط الحناجر الجافة الغليظة لطلبة الثانوي المنقادين بالتيسترون.

أخبرته ألطاف برقة أن «عيط حبيبي، العياط ميقللش منك». تكشف له عن صدرها مثل قمر أبيض ترك السماء؛ ليكون طوع عينيه ويلين لكفيه هو فقط دون البشر، وتسحب رأسه الصغير برفق لتلصقه بين نهديها، تمرر أصابعها عبر الأسلاك النحاسية

السوداء بفروة رأسه، وتهدهده، أن ابكِ يا طفلي الكبير، لا بأس عليك. ولا يستطيع البكاء، لم ينجح قط في استخراج الماء المالح من عينيه. لطالما كان حازمًا مع نفسه؛ حين كان يستشعر بللًا طفيفًا على حافة عيونه كان يخبط رأسه بأول حائط يصادفه، ولا يبكي شدة ألم رأسه، بل يحال أكثر صلادة. لكنه بكى تلك الليلة. وشعرت ألطاف بقطرات الماء تلمس مفرق نهديها وتتهادى رويدًا، رفعت رأسه ورأت دموعه وهو بادلها النظر فخورًا مثل طالب ينتظر ثناءَ معلمته، لكنه وجد في رأسها عيون أبيه، قاسية ومؤنبة، رأى فمه مائلًا في استهزاءٍ وسمع صوته الحلقي يصم أذنيه: «راجل بيعيط! خول». فهطلت دموعه وقد عجز عن إيقاف السيل المتدفق، بينما كفي ألطاف الرقيقان ينسلان رفقًا من فوق رأسه إلى وجهه، ثم يلتفان حول رقبته، تتحسس بأصابعها الطويلة رقبته في دغدغه محببة، ثم تغلق كفيها عليها، وتضغط شديدًا شديدًا، يحاول إزاحتها، إبعاد كفيها، الخروج من تحت سطوة جسدها العريض، لكنها كانت تنتفخ، كانت قد أصبحت بجسدها كله فوق جسده الهزيل، تنتفخ كبالون ضخم، الهواء يختفي، يسمع صوت عظامه تتهشم أسفل جسدها الآخذ في التضخم، يفقد أي قدرة على المقاومة، يستسلم للخدر، الألم، ودموعه التي ملأت الحجرة حتى منتصفها.

بقى بمكانه دقائق يحاول طرد الحلم عن رأسه، شعر لوهلة باشتياق أخافه، برر رغبته في ظهورها باحتياجه للنقود، لقد ظن أنها ستعود بعد يومين على الأكثر، وها هو صباح اليوم الثالث

يهل دون ظهورها. ومروة غارقة بفراشها لا تكاد تبارحه إلا تحت إلحاح طلبات مريم، وترفض الاستجابة لأوامره بتولي شؤون البيت. وهو أصبح يغادر المنزل بلا إفطار لائق، وهذا الصباح لا يجد ما يرتديه.

لقد غالت ألطاف في تدليل مروة حتى أفقدتها البوصلة، وعليه هو أن يعيد تربيتها؛ لتدرك ما عليها من واجبات تجاه المنزل في غياب أمها. لماذا لا تعِدُّ الفطور وتغسل الملابس؟ وبدلًا من ذلك، تتكاسل في حجرتها متصنعة الحزن على غياب سيدة ليست والدتها أساسًا.

خرج من حجرته مشتعلًا بالغضب، ودفع باب حجرتها بقوة.

15

تعرف مروة أن فارس غير مهتم بالبحث عن ألطاف. لقد سحبت كارت البنك عن الحافظة منذ أن اختفت أمها، وتركت الحافظة ظاهرة له على سطح الحقيبة؛ كانت تراهن نفسها على رؤية أصابعه الطويلة تتسلل في ما يظنه خفةً، ليستل الحافظة ثم يخبئها في جيب سرواله، تمنت لو ترى بنفسها صدمته حين يكتشف اختفاء الكارت. لكنها أدركتها، بانت في ما بعد في ادعائه الهدوء خلال نوبة قلق يفقد فيها القدرة على قيادة ذاته لتكون كما يرغب أمامهم.

قررت ألا تخبرهم أبدًا أن الكارت بحوزتها، عرفت أن لا مبالاتهم باختفاء أمها سوف تتلاشى حين تنتهي النقود ويهل شهر جديد.

تشعر بالذنب تجاه مريم بالتأكيد، لكن الصغيرة لن تحفظ السر؛ لا تثق بها، كما أنها واثقة أن اختفاء ألطاف ضار بمريم أكثر من اختفاء الأكل.

ما لا يفهمه فارس أنها حاولت بالفعل الحصول على رقم هاتف من السيدة الغريبة، لكن المكالمة كلها كانت محبطة، خط متقطع وأصوات لا تصل، معلومات منقوصة وأسئلة لا تجاوب عنها السيدة، حتى انقطع الخط ثم انغلق الهاتف.

انقشع النور سريعًا كما جاء، أدركت أنها وحيدة جدًا، وأن صراخها بين جدران المنزل يرتد لطمة بقلبها، لا أحد يمشي حاملًا أعباءه وحده، ومريم ما هي إلا عبء إضافي.

لماذا تخفي أمر اختفاء أمها عن صديقتها كأنه عار لا يمكن الحديث عنه؛ عليها أن تشاركها ما ألمَّ بها، هي الآن في أمس حاجة للحكيّ، على الأقل مع هبة. رضوان وفارس لم يَخلوَا بسير أيامهما، هي فقط مَن تتقوقع هنا مختبئة من العالم تاركة للزمن أن يمر فوق جسدها بأريحية ودون مقاومة.

في الصباح التالي للمكالمة الهاتفية، قررت أن تعود إلى كليتها. لم تسألها هبة عن سبب غيابها يومين لكنها لن تغضب، فقط لأنها تحتاج حقًا لأن تتحدث معها.

في الكلية شعرت بجسدها الطويل الممتلئ عود قمح لا يملك من نفسه شيئًا. الريح شديدة، والتوازن عملية معقدة. وبدا الهواء مرئيًّا، والخوض خلاله يستلزم مجهودًا مضاعفًا.

من المهم أيضًا ألا تفوتها المحاضرة بعد يومين من الغياب، لا بُد أن تحافظ على الحد الأدنى من خططها في الوقت الحالي. الطلاب متوجهون نحو قاعة المحاضرات زُمرًا، تعرف وجوههم لكنهم غرباء. تبحث عن هبة من أجل بعض الاطمئنان، تراها هنالك تمشي وتبتعد وهي عاجزة عن اللحاق بها. الطلاب ينقسمون ذاتيًّا، تتكرر الوجوه فيمر بها مَن مرَّ سابقًا. والخطو صار مستحيلًا، تحاول التشبث بالسور الأسمنتي القصير،

تصارع الجاذبية ولا تصرعها، لو استسلمت تأكلها الأرض، ويمرُّ كل الناس ويتلاشون، وتخرج الكلمات من فم الدكتور فلا تتلقاها مثلما يتلقونها وتضيع.

ملتصقة بالأسفلت، الشمس مرتفعة وقاسية، تقذفها بأشعة من اللهب فيذوب جسدها رويدًا مختلطًا بالأسفلت حتى ليكاد الطلبة يخطون من فوقها. تحاول رفع رأسها في استغاثة أخيرة فيبدو المبنى لها مائلًا، ثم يفرقع في سقوط مدوٍّ يدفعها للجلوس بالفراش، غير قادرة على التقاط أنفاسها، ولا إدراك ما يقوله رضوان الذي اقتحم حجرتها للتوِّ بوجهٍ أحمر يقطر غضبًا!

كيف يجرؤ على اقتحام حجرتها بعد ما كان منه في الليلة الماضية؟ بقاؤها في منزل واحد معه دون ألطاف صار جحيمًا، لم تخشَ غضبه وقساوة ملامحه وعلو صوته، بل عداها به فقفزت من على الفراش كأسد على وشك تقطيع فريسته بأنياب حادة، كان غضبها أعلى حتى من قدرتها على الصراخ في وجهه، وجدت نفسها تقترب نحوه لتدفعه خارجًا بقوة في حركة باغتته فغلبت دهشته غضبه واختل توازنه، بينما صفعت باب حجرتها ثم سمكرتها بالترباس الداخلي.

حين وجد جسده مكومًا على الأرض أمام حجرتها، والصغيرة إلى جانبه فاغرة فاها في دهشة، استشاط غضبًا وكاد يحطم باب الغرفة بينما يقرع مروة بألفاظ نابية. ومريم انزعجت مما يحصل وجرت نحو باب الشقة وهي تبكي وتصرخ، كادت تخرج

من البيت فكفَّ رضوان عن مروة وباب حجرتها ولحق بها. حملها وألقى بها على الأريكة وهو يشتمها هي ومروة، ثم أعلن عن حبسهما بالمنزل، وخرج مغلقًا باب الشقة خلفه بالمفتاح.

الفصل الثاني

1

شهر على اختفاء ألطاف

(بيت ناهد)

زحف الليل على الشارع الصغير؛ ليتركه غارقًا في طبقات عميقة متدفقة من الظلام، انغرست في قلبها هنا وهناك نجومٌ صغيرة من كشَّافات الهواتف. كان الشارع في حجمه أقرب لممر نحيف من بركة مجاري معجونة بطبقات من الطين بين بنايات شاهقة الارتفاع، تنتهي بطِوارٍ لا تتسع مساحته بالكاد إلا لمرور شخص واحد.

أضاءت مروة كشَّاف هاتفها بينما تخطو في حذر، حين زحفت إلى أذنيها - من وسط ضجيج السيارات المارة بالشارع الخارجي - أصواتٌ مختلطة للأطفال ميَّزت من بينها صوتَ مريم. كانت تتعجب من قدرتهم على الاستمرار في اللعب خلال هذا الظلام الحالك، فحتى في فترات عدم انقطاع التيار الكهربائي، يظل الشارع مظلمًا إلا من أعمدة قليلة للنور الصادر من نوافذ العمارات دون أن تضيء شيئًا حقًا. لم تحب النظر إلى مريم، فضلت تجنبَ توجيه كشافها تجاه صوت الأطفال.

أخذَ عقلُها يتمثَّل صورةَ البيت، فتتكثف على قلبها ظُلمةٌ أشد وقعًا، ترفض الانصياعَ للصوت الآمر بإظهار كارت البنك والتخلص من الكابوس الجاثم على أسرتها، لقد فقدوا بيتهم القديم؛ لأن رضوان قرر أن إيجاره أعلى من دخله، كما أن دخله لا يُمَكِّنه من تلبية مصاريف البيت بشكل عام. بعنادٍ تتمثل صورة حجرات بيت ناهد وتتحرك بعقلها خلالها في محاولة لإيجاد ركن تألفه؛ لتتمكن من التكيُّف على حياة مؤقتة لحين عودة ألطاف، حتى لا تضعف فتكشف لهم عن حيازتها للكارت. تلك خطوة تعني لها أنها فقدت الأمل في عودة أمها، بل لكأنها لم تعد تبالي أصلًا بعودتها. بيت جدتها مكوَّن من حجرتين وصالة صغيرة. رغم العداوة التاريخية بينهما، فقد شارك رضوانُ، زكي حجرته، كما انضم إليهما فارس. وتركوا الصالة للبنتيْن. زيارة جدتها على فترات متباعدة كانت لمروة كابوسًا، فضلًا أن يكون هذا هو مقرُّ إقامتها الدائم، بالصالة الملاصقة لغرفة ناهد العبقة برائحة هي خليط من البراز وعرق قديم جاف وآخر متجدد، وآثار تدخين مزمن مختلطة برائحة الكحول والمرض والشيخوخة. فقدت حجرتها وخصوصيتها؛ أن تحيا تحت أنف العم الذي لا يكاد يغادر المنزل أو يكفُّ عن التدخين.

غدت مروة تمضي وقتًا طويلًا في بيت هبة، وهي تحاول، بعقل تصب عليه برودة ليست فطرية به، إسكاتَ صوت التأنيب النابع من تفكيرها في مريم العالقة في البيت الصغير بين ناهد وزكي بلا مخرج. حين تعود مساءً تجد الطفلة خارج المنزل تلعب مع

أطفال الشارع، وقد غدت تشبههم، بوجه ملطخ بالتراب وأقدام حافية وملابس مهلهلة ومبقعة. تفكر في ألطاف لو رأت طفلتها على تلك الشاكلة، ثم تغضب منها، أليست هي مَن رحلت؟

زكي له عينان تضيئان في الظلام مثل قط متلصص. لا يمرُّ أحد من الشارع دون أن يتفحصه جيدًا. تخطو مروة برفق على الرصيف الصغير جدًا والذي لا يتسع سوى لمرور قدمين صغيرتين حذرتين، لو أفلتت تغوص بقدميها في بركة المياه العميقة المختلطة بطبقة سميكة من الطين. تشعر مروة برأس زكي الممدود، وحتى برائحة أنفاسه، لحظة مرورها بجانب شباكه، لا تلتفت نحوه مطلقًا. ترغب بشدة ألا يبادلها كلمة، وتمقته كما تمقت أمه. تُوهِم نفسها بالانتماء لأسرة أمها التي لا تعرفها ولم ترغب قط في سؤال رضوان عنها. في خيالها حكاية محكمة عن أسرة من أصول تركية، تحيا بفيلًا كبيرة في مكانٍ ناءٍ لا يختلطون فيه بالناس العاديين، وتحت أيديهم طاقم كبير من الخدم. تلك هي أسرة أمها التي خلقتها لنفسها وحكت عنها لصديقاتها بالجامعة. وحين يسألونها بخبث لماذا لا تتصل بهم، تغطي على حرجها من السؤال بالسخرية منه. أي أسرة ستعترف بحفيدة جاءت من الحرام، خاصة وأن أمي ماتت، نعم لا يهمها أن تكون أمها زانية (حتى لو كانت معلومة اخترعتها). كما أنها قتلت أمها في حكايتها، فقتلتها داخلها دون ذرة ندم. لا تسأل رضوان عن أمها الحقيقية؛ لأن أذنها التقطت في أثناء طفولتها، كلمة «خادمة» عن أمها خلال شجار بين ألطاف ورضوان. ترفض

تحطيم العالم الذي خلقته لنفسها وانتمت إليه على مدار أعوام.

شعرت بأنامله الخشنة وهي تلمس وجنتها في خطوها الحذر، فهشتها كما تهش ذبابة سخيفة وضحك هو ضحكة جافة على أثر إبعادها كفه، ثم ألقى عليها تحية المساء.

شعرت بنفور شديد من الولوج للمنزل والمرور عبر روائح حجرة ناهد. كان قرارًا سريعا أن تذهب الآن إلى منزل هبة. لفت جسدها فتعرقلت وأفلتت لتغوص حتى ركبتها في برك الماء والطين، قامت غاضبة تنفض ملابسها على وقع ضحكات زكي الطويلة الساخرة، واشتعل وجهها احمرارًا، ومضت تخوض في بركة الماء لا مبالية.

حين رأى أنها تمضي مبتعدة، نادى عليها قائلًا في جملة مختلطة بالضحك:

- طب حتى غيَّري هدومك اللي اتطينت دي!

غدا مشيها الغاضب ركضًا، وهي تبتعد قدر ما أمكنها عن الشارع، عن أصوات الأطفال، وعن صوت مريم وقد لمحتها مارة فجعلت تركض خلفها وتنادي عليها، لكنها لم تلتفت. أرادت أن يختفي الشارع وكل ما تعرفه من حياتها، أرادت دفء بيت هبة ونظافته الآن حالًا، في تلك اللحظة بالذات.

2

خطت مروة بحرصٍ بالغ على لوح الخشب الممدود فوق بركة المياه العميقة، عند بوابة الكلية، كانت السماء رمادية والمباني استردت لونها البنيّ بعد ثلاثة أيام من المطر المتواصل. تفحصت الساحة بعيونها باحثة عن هبة، تتمنى ألا تتغيب عن الجامعة اليوم أيضًا، فتضطر إلى العودة إلى بيت جدتها آخر اليوم مهما تعمدت التأخر في الجامعة.

لن تجرؤ على الظهور على عتبة منزل هبة بلا سابق إنذار مرة أخرى، بعد الليلة الماضية حين اخترعت حكاية عن سفر أهلها فجأة لموت قريب لهم بالبلد. حين تتواجد هبة يكون من الطبيعي أن يتوجهان إلى منزلها معًا بعد الجامعة، حيث تستمتع بوجبة شهية دافئة، ورائحة عطر والد هبة في عودته إلى المنزل أنيقًا وسيمًا ولطيفًا.

- يا مروة!

تنفلت قدمها عن اللوح الخشبيّ في التفاتها نحو الصوت، فيبتل شرابها، ولا تجد هبة إنما روان.

تسحب قدمها الملوثة بالطين في حركة غاضبة، ثم تقطع المتبقي بقفزة واحدة سريعة، داخل ساحة الجامعة، تنتظر عبور

روان اللوح الخشبيّ في ضجر بينما لا تزال تترقب وصول هبة.

روان متوسطة الطول وممتلئة الجسد في تناسق يختفي أسفل اختيارها الرديء لملابسها. لا تحب مروة الظهور معها في الجامعة مما يذكر الجميع أنهما أبناء عمومة، وروان بشخصيتها البسيطة والمرحة لم تلحظ قط تجنُّب مروة لها، تشتعل ملامحها بالبهجة حين يلتقيان مصادفة. اليوم على قدر استياء مروة منها، إلا إنها بدت في جديَّة تخالف ما جُبِلتْ عليه، كما أنها أثارت فضولها برغبتها في التحدث معها حول أمر هام وخاص على حد تعبيرها. الأمر مغاير لتلك المقابلات الودودة المعتادة، حين ترغب روان فقط في قضاء الوقت بصحبة هبة وصديقاتها في ساحة الجامعة وتبادل الحديث معهن كأنها أيضًا صديقة لهن، حين تسعى مروة بمختلف الطرق والتحايل إبعادها عنهن، فصديقاتها أيضًا يتضايقن من التصاق روان بهن.

حين تنحَّتا جانبًا لم تكن هبة قد ظهرت بعد، ومروة التي أحالت عيونها رادارًا يترصد ظهور هبة أعطت أذنها لروان بنفاد صبر. تود لو تتوقف عن المجاملات السطحية والضحكات التي لا معنى لها ولا سبب، فتخبرها مباشرة بالأمر الهام.

حسنًا، نجحت روان فعلًا في جذب انتباهها بالكامل. تحدثت عن رغبتها في الارتباط بشاب تحبه، وتطلعت مروة إليها تتفحص قامتها القصيرة السمينة، طريقتها في رسم عيونها بالكحل

أسفل خط العين لتبدو مثل مهرج للسيرك، وضعُها دبوس طرحة ضخمًا جانب أعلى رأسها بطريقة مضحكة، ومع ذلك وجدت مَن يحبها، عجيب!

تود مروة الآن قبل كل شيء أن تراه، تخيَّلته شابًا هزيل الجسد ، له عوينات كبيرة سوداء وصوت مخنث، ثم تخيَّلته يشبه رضوان. ضحكت ساخرة في داخلها، وادَّعت السعادة من أجل روان في الظاهر، وتحمست لمساعدتها في تحديد موعد له مع زكي، كي يزور بيتهم. على قدر كراهيتها لأي حديث مع زكي، على قدر حماسها لرؤية ذلك العريس العجيب.

طمأنتها بأنها ستفعل وهي تربت على كتفها، وقد زايلها الفضول إلى ضجر بصحبتها. فقدت الأمل في ظهور هبة اليوم مما يضطرها إلى العودة إلى منزل جدتها مساءً. أورثتها الفكرة غضبًا بدت معه ضحكات روان شيئًا معدنيًا ثقيلًا يخبط رأسها فيصيبها بصداع هائل. استطاعت التنصل منها بضرورة الدخول إلى المحاضرة التي لن تبدأ قبل نصف ساعة في الحقيقة.

3

صارت الإفاقة كابوس فارس الذي لا ينقطع. حاول مرارًا معاودة الاتصال برقم أمه إلا أنه كان مغلقًا على الدوام. قبل الانتقال من بيتهم قرر مع رضوان ضرورة البحث عن ألطاف، فاتخذا الإجراءات العادية في تلك الحالات من السؤال عنها في مستشفيات الاسكندرية، وأقسامها، ولم يتوصلا إلى نتيجة.

خلال تلك اللحظات شعرت مروة بالانتصار عليهما، بدآ يهتمان حين انقضى شهرٌ وانتهت النقود، هذا ما كانت واثقة منه وتنتظره بفارغ الصبر. استسلم رضوان بعد يومين من اللفِّ على المستشفيات والأقسام، بينما لم يطِق فارس الرضوخ لحال يخضع فيه لقبضة أبيه المتقشفة. بقى معلقًا بحادثة السيدة التي كلَّمت مروة، لا تبارحه الفكرة يفتش خلفها. بعثر محتويات دولاب ألطاف وهو يبحث عن علبة هاتفها المحمول؛ ليتمكن من تتبعه كما عرف الطريقة من خلال البحث على الانترنت، فيعثر على مكان السيدة، أي مكان إقامة أمه خلال أول ليلة من اختفائها.

اختار صباحًا كانت شقتهم القديمة خالية إلا منه، أقنع رضوان بفك الحصار عن مروة وتركها تخرج إلى الجامعة بعد أن كان قد حبسها بالمنزل يومًا وليلة تأديبًا لها كما يزعم. لم يكن أمرها

يهمه في الحقيقة، لكنه أراد أن يختلي بحجرة أمه ويبحث خلفها. ليست علبة هاتفها المحمول هي هدفه الوحيد؛ مَن يدري، فقد يجد أيضًا حليها الذهبية!

جلس القرفصاء أمام دولابها، وبدأ في تفتيشه بدقة، يستخرج الأشياء منه قطعة قطعة على مهل. يعلم كم كانت ألطاف بارعة في إخفاء أشيائها الخاصة. رغم أن دولابها كان مُكدَّسًا، إلا أنه ليس في حال من الفوضى. استخرج الشراشف ووضعها على الأرض، وخلفها كانت مجموعة من الأكياس، فبدأ يفتش كلا منها. ألبومات الصور التي لا تمل من تصفحها، كيف لم تفكر في اصطحابها معها؟ أقمشة لا معنى لها، لكنه استخرجها من الكيس قطعة قطعة لعلها تخفي بينها شيئًا ذا قيمة. كيس آخر صغير وجد به ملابس طفل! أمه سيدة مريبة! لماذا تحتفظ بملابس طفل صغير؟ لحظة، تلك الملابس مألوفة، أصلًا لا يمكن أن تكون لأحد غيره، لماذا احتفظت بملابسه صبيًا؟ كانت تي شيرت وسروالًا من الجينز مطويان، ففردهما أمامه على الأرض يتأملهما، وباغتته انقباضةٌ بصدره وهو يستعيد الذكرى. رأى السروال مفقودة أزراره، وثقوبًا متفرقة بالتي شيرت، وتذكر، عاودته الذكرى كلها مثل لطمةٍ على وجهه.

شعوره بأنه صغير جدًا، والمباني حوله شاهقة الارتفاع، الناس أيضًا عمالقة، يتحركون حوله بسرعة، يكاد يتهشم وسطهم، لا يدري مكانه ولا كيف يرجع إلى بيته، يحلم بأمه ويود لو يذبح

أباه، يجري فزعًا ويمد الخطوَ، وتخلو الدنيا حوله إلا من سور عالٍ لا يدري ما خلفه، لا يجد إنسانًا يسأله حتى يظهر ذلك الرجل كحبل نجاة يتشبث به، يبتسم له ويربت على ظهره، ينحنى لينظر في وجهه، ملامحه طيبة ومريحة، يمد إصبعه فيمسح دموعَه ويخبره أنه سيدله على منزله. يضمه ليهدئه فيهجع في حضنه ويطمئن، لكن ضمته له تصير شديدة موجعة، ويدس كفه الضخم داخل سرواله من الخلف فتنقطع الأزرار، يحاول دفعه بعيدًا بكفوفه الصغيرة فيعجز، يحاول الفرار بلا فائدة، وقع في المصيدة كفأر ساذج وجائع وجد قطعة من الجبن، ينفض رأسه بشدة محاولًا طرد الذكرى، ألطاف بنت المجانين، يشعر بالغضب؛ لماذا احتفظت بتلك الملابس بالذات؟ لماذا؟ يتذكر كيف جاءت بخاله إلى المنزل بزعم أنه طبيب نفسيّ، أبناء خاله خارج الغرفة يتلصصون عليه من الباب الموارب، وخاله يلح عليه أن يحكي بالتفصيل ما حصل معه، أبناؤه يرمقونه بخبثٍ كاتمين الضحكات. في ما بعد صار يكره زيارتهم السنوية لمصر. حين شبَّ استطاع أن يتجنب أي لقاء بهم. مرارة الذكرى لم تنحصر فقط على تجربتها، امتدت بفضل غبائك يا ألطاف لتحاصره أعوامًا بعدها. قام غاضبًا وهو يحمل الملابس الصغيرة. في المطبخ سكب عليها جازًا، ثم دسها في الحوض وأشعل فيها نيرانًا كادت تصل للسقف. وقف يتأملها وهي تحترق، ويتخيل ألطاف تحترق معها. رضوان هو مَن دفع به إلى الشارع، لكنها هي مَن جعلت حكايته نادرةً تتحاكى بها الأسرة، ويُعيِّره بها أبناء

أخواله أعوامًا متواصلة؛ «فارس اتناك».

عاد إلى دولابها وقد فقد هدوءه، الآن يستخرج منه الأشياء نافذ الصبر مثيرًا للفوضى غير عابئ بما قد يُكسَر أو يضيع. في حركته السريعة الغاضبة، طارت ورقةٌ صغيرة من قلب الدولاب، ثم حطت أمامه، ورأى فيها خط أمه.

«تتساقط المعاني عن جسدي تاركة إياي عارية بشكل كامل، ضعيفة أنا. جسدي ليس قويًّا كفاية ليصمد حتى ربيع آخر، لقد تآكل تمامًا من الداخل، هذا الجسد الضخم ما هو إلا غلاف يخبئ التآكلَ التدريجي الحاصل بداخله.

مروة ليست طفلتي وارتباطها بي لا يعنيني، فارس يكرهني، ومريم، آه، مريم لن تجدني، لن أستطيع أن أكون لها أمًّا، عليَّ أن أتوجه نحو باب الخروج من أجلهم جميعًا قبل كل شيء، لو رجعت سأكون واحدة أخرى، ربما وقتها أعيدُ اختبار أمومتي، في امتحان آخر قد أنجح.

التواصل مع سيدة للضرورة. ×

رقم هاتف أميرة: 010××××××× √√

أرقام الخزانة، على مروة أن تحفظها جيدًا. √

المعاش منحتي الأخيرة لهم، هو كل ما أستطيع تركه مني من أجل الحفاظ على التماسك المادي للبيت، رضوان ليس منه فائدة. اعتمادي رغم كل شيء على مروة».

الأجزاء الأخيرة من الورقة كانت أشبه بقائمة عمل وقد وضعت تحتها خطوطًا وعلامات (صح) إلى جانب كل منها. نحى الورقة جانبًا، وأفرغ محتويات الدولاب حتى بلغ الخزانة. كان يفكر من عقل ساخن كيف أن ألطاف وثقت ببنت الشوارع مروة لكي تعطيها رقم الخزانة، بينما تجاهلت ابنها. امرأة حقيرة، ونعم يا ألطاف، أنت أسوأ أمٍّ على الإطلاق. قالت المعاش منحتي الأخيرة لهم، فهل الكارت داخل الخزانة إذن؟

هل ستعطيه مروة الأرقام السرية لو طلبهم منها؟

بالطبع لا، هذا أصلًا إن لم تكن استولت بالفعل على الحليّ الذهبية وكارت البنك، آه يا بنت كلب يا مروة، تدَّعين البراءة، وأنت عاهرة، لصة. حمل الخزانة الصغيرة ورجها فشعر بها ممتلئة واطمئن نوعًا ما ، عليه الآن أن يفكر في كيفية فتحها دون اللجوء لمروة، في النهاية هي خبيثة كأمها الخادمة بالبيوت، لصَّة مثلها، وعاهرة تحت التدريب.

وضع الخزانة جانبًا وقد عاوده شيء من الراحة، جعل يعيد ترتيب الأشياء التي استخرجها من الخزانة؛ لا يريد لأحد أن يلحظ شيئًا. واحتفظ بالورقة مع الخزانة. يعلم أن سيدة هي أم مروة، فمَن أميرة؟ لو الخزانة لا تحوي ما يريد، فستنفعه تلك الورقة بالتأكيد.

4

رغم شعور مروة بالراحة في بيت هبة، إلَّا أن بقاءها بصحبة فيروز والدة هبة وحدهما كان يربكها. فيروز تسألها بكلمات متمهلة ثقيلة عن أمها، أو أبيها، البيت أو الجامعة؛ تحاول أن تكون ودودة معها، تتحدث بصعوبة وقد ثقل لسانها بسبب الشلل النصفي الذي تعاني منه. تستجمع مروة قوتها لتبدو طبيعية في صحبتها؛ لكي لا يظهر عليها ما قد يبدو شفقة أو تحديقًا نتيجة لعجز السيدة.

تترقب بفراغ صبر عودة هبة من المطبخ ليختليا في حجرتها بعيدًا عن الأم، رغم أن تواجدها في الصالة له أيضًا مزاياه لو وصل فريد أبو هبة للمنزل. تحب مروة أن تشهد عودته، يقبل رأس فيروز وكفيها، ثم يسألها عن حالها، ويضم هبة، كما أنه ينظر لمروة نفسها بحنو الأب ويسألها عن أحوالها فتنتشي بسؤاله. كان فريد رجلًا وسيمًا، زاده شيب رأسه وشاربه جمالًا، يذكرها براغب علامة. في إحدى المرات، وهو خارج عقب استيقاظه عصرًا، كان يسلم على هبة ويقبِّلها قبل خروجه من المنزل، فقبَّل مروة أيضًا. لشد ما ارتبكت وخجلت، بينما ضحكت هبة من خجلها لتزيدها توترًا، «مالك يا بت؟ ده بابا عادي!»

ظت تلك القبلة إحدى ذكريات بيت هبة الأكثر دفئًا وجمالًا.

لهبة أَخوَانِ أكبر منها، لكنها ترى أنهما ليسا في وسامة أبـيهما، كانا أيضًا لطيفين، يداعبان هبة ويهتمان بها، فضلًا عن كونهما يتواجدان في البيت لفترات طويلة، وهو أمر غريب بالنسبة إلى مروة التي كانت تظن أن كل الشباب مثل فارس، يمضون يومهم كله خارج بيوتهم، ولا يعودون إلا للنوم.

فيروز تتحدث ببطء شديد، تحاول تكوين جملة كطفل صغير بدأ يتكلم للتوِّ، ومروة لا تتمكن من إبقاء ذهنها معها لتتابع ما تقوله لها فترد. لم تلتقط ما قالته للتوِّ، والمرأة ترمقها بنظرة متسائلة، تنتظر إجابة على السؤال الذي صاغته بصعوبة. باب الشقة ينفتح لينقذها من الموقف المربك، ويتقدم خالد إلى الصالة مقطبًا، يقبل رأس أمه وكفيها كما اعتادوا، ولا يلتفت نحو مروة. يبدو كأنه لم يراها. يسأل بصوت صاخب عن هبة، فيأتيه صوتها من المطبخ ويختفي داخله. ومروة يساورها الفضول فتتبعه وعلى باب المطبخ تلتقط ما يدور بينهما من حوار، أحد أصدقاء خالد شاهد هبة بصحبة عمر حبيبها. تعرف مروة كل تفاصيل علاقة هبة بعمر، لكن أسرتها بالطبع لا تعلم عنه شيئًا. ليس الآن وهما بعد طلبة. تتصاعد نشوة داخل مروة، وهي تنتظر مشهدًا ساخنًا اختبرته سابقًا بكل تفاصيله. جاء فارس من الخارج في موعد غير معتاد، لم يُقبِّل رأس ألطاف أو كفيها. ألطاف ليست مشلولة على أي حال. ثم نادى على مروة بنبرة

صوته الثخينة حين يضخمه في محاولة بائسة لإظهار ذكورته المنتقصة، كانت مروة في حجرتها وخرجت تستطلع غضبه فإذا به منصبًّا على رأسها؛ رآها صديقه بصحبة محمد الذي أصلًا لم يكن ذا معنى في حياتها، ولم يكن حبيبًا. كانت تجرب ويجرب، إذ ربما يحل بينهما انجذاب. كان عامها الجامعي الأول، وأرادت أن تكون مثل جميع زميلتها تمتلك حبيبًا. لم يأتِ فارس ليواجهها وحدهما، وإنما جاء يلقي صاعقة صاخبة على رأس ألطاف. ولم يكتفِ؛ حين طلبت منه ألطاف أن يترك الأمر لها فلا يبلغ رضوان، لم يسمع لها، وصمم أن يعرف رضوان فيعاقبها بسحب هاتفها المحمول ويطلب جدول كليتها ليجعل من ألطاف رقيبة مستمرة عليها؛ أن تكون في المنزل بعد نصف ساعة من انتهاء المحاضرات، أو يحرمها من الجامعة كلها. أيام وليالٍ سوداء مرَّت عليها كالجحيم، ألطاف صارت تجثم على صدرها كالهم. حين أعادوا لها الهاتف، كان شرط ألطاف أن تتسلمه منها كل ليلة، فتتفحص محتواه بالكامل. لا تمهلها أن تتأخر يومًا حتى بعد أن هدأ رضوان ونسي الأمر كله وصار لا مباليًا؛ لأن ألطاف تريد دائمًا أن تثبت لرضوان نجاحها كأم. أمٌّ تعذبها هي، وتطلق لفارس العنان والنقود يبات بالخارج ويدمن المخدرات، ويصادق البنات بينما تصب جام غضبها على مروة لو أرادت فقط أن تقضي ساعة أو أكثر مع صديقاتها في أحد الكافيهات. لم تعد تسمع ما يدور بين خالد وهبة؛ كانا يتهامسان. وحين هَمَّا بالخروج من المطبخ جرت على أطراف أصابعها وأغلقت عليها الحمام القريب مهلًا

ثم فتحت بابه في صوت مسموع. لاحقًا، في الحجرة، حكت لها هبة بقلق كيف أن خالد عرف بأمر حبها لعمر وأنه يريد أن يسأل عنه ويتعرف عليه عن كثب. هذا كل ما في الأمر؟ هكذا فقط كان رد فعله؟ حاولت مروة ألا يبدو على ملامحها ما يعتمل داخلها. كان عليها الرحيل من بيت هبة الآن، الغيرة تأكل جدار قلبها من الداخل، تكاد تحترق بها، ولن تهدأ إلا بالبكاء. تنصلت من هبة بحجة واهية، وعلى السلم أطلقت لدموعها العنان. في الشارع أسفل بناية هبة، كانت الرؤية غائمة، ولم تكن مروة تعرف لنفسها وِجْهَة. حين صادفت فريد الذي هابه بكاؤها في الشارع، حاول أن يقنعها بالصعود إلي منزلهم حتى تهدأ، وحين رفضت رفضًا قاطعًا، أخذها إلى مقهى قريب وطلب لها قهوة ولم يلح عليها لتحكي ما بها، لكنها هدأت، هدأت فعلًا واطمأنت بوجوده، لكن داخلها كان لا يزال فائرًا بشدة، قد ساورها شغف جديد أصبح شغلها الشاغل، أفكارها تدور وتلتف بمشاعرها كماكينة نسيج تعمل بأعلى طاقتها. كانت الفكرة الأوضح لها الآن، هي التملك. لا بد أن تمتلك فريد، عليه أن يكون لها منذ الآن، وإلى الأبد. كانت تفكر في ذلك من عقل ساخن ووجه مصبوغ بلون أحمر. قرار ألقى بماء بارد على مشاعرها الملتهبة.

5

جلس زكي ينفخ دخان سيجارته لا مباليًا بالشاب المرتبك المتعرق الجالس قبالته. يحاول الشاب عبثًا خلق حوار يطفئ الغرابة المهيمنة على جلستهم، يتحدث عن الطقس الممطر بالخارج، الانتخابات ورأيه فيها، لكن زكي لا يبادله كلمة واحدة ولا حتى إيماءة، يواصل إشعال سيجارة من أخرى، يمسحه بعينيه من رأسه إلى أخمص قدميه، يتساءل في داخله عن ماهيته، ويتعجب من قدرة ابنته على اجتذاب شاب كهذا. بدا له مكتملًا، شابًا وسيم الوجه، ذا جسد رياضي طويل، أنيق الملبس. ولولا ارتباكه الطبيعي في مثل هذا الموقف لبدا أيضًا متحدثًا لبقًا. خرجت روان من حجرة جدتها تدعو رامي للدخول من أجل الالتقاء بها، أجلسته على الكرسي البامبو الوحيد بالحجرة، وجلست هي على حافة الفراش. بدت سعيدة، تضيء وجهها ابتسامة واسعة. تبدو روان دومًا من الناس الذين يرون من الدنيا أوجهها الجميلة ولو كانت غائمة، لم تكن مثل مروة تتأفف من التواجد في حجرة جدتها، أو من جدتها نفسها. تعيش روان في كنف جَديْها لأمها بعد وفاة أمها منذ سنوات عدة. ربما داخلها شيء من الكآبة ليس أصيلًا فيها عقب وفاة أمها، لكنها نفَّسته في كتابة أشعار بسيطة اجتذبت لها الكثير من المتابعين على مواقع

التواصل الاجتماعي، حتى غيَّرتْ اسمها إلى (الشاعرة روان). تعلَّق رامي بها على وقع ضحكاتها العالية المتواصلة. دومًا ومنذ نعومة أظافرها، كانت تتميز بالضحك، لطالما كان الضحك هو شامة شخصيتها. في المدرسة كانت هي ومروة القريبتان المتناقضتان. في ما كانت مروة بنتًا باكية، كانت هي ضحوك، حتى ليشعر المرء أنه بها شيء من التأخر العقلي. في حجرة ناهد، حاول رامي أن يتنفس أخيرًا بعد جلسته المربكة مع زكي. نعم ناهد ودودة، متحدثة وضاحكة كروان، معها شعر بشيء من الارتياح أخيرًا، حتى أنه سألها لو عرفت رقم لجنتها لتشارك في الانتخابات. كانت متحمسة بشأن الأمور السياسية، وبدا أنه وناهد لديهما ميول سياسية واحدة، كانت متابعة جيدة لكل برامج التوك شو تشاهدها من خلال شاشة التلفاز الصغير المواجه لفراشها دون أن تبرحه. بالطبع يصعب عليها الذهاب للجنة، رغم رغبتها الشديدة أن يبقى الرئيس السيسي فترة انتخابية جديدة. أصرَّ رامي على ضرورة خروجها للانتخابات، وأخبرها أنه واجب وطني على كل شخص، وأنه سيساعدها كي تلبي نداء الوطن. يستطيع أن يستعير لها كرسي متحرك، ويذهب بها بنفسه إلى لجنتها. وبلغ به حماسه أن عرف لها مكان لجنتها وأرقامها من خلال خدمة الرسائل النصية التي توفرها الحكومة. وافقت ناهد وقد ساورها حماس للخروج من البيت الذي لم تبارحه منذ سنوات عدة، واتفقا أيضًا على أن يتنزها على شاطئ البحر في ما بعد. شعر رامي بالراحة، وأن طلبه الذي لم يعلنه بعد سيكون

مقبولًا، ما دامت ناهد تبتسم في وجهه وتوافق على الخروج معه كأنه بالفعل صار خطيب حفيدتها. الحق أنه كان بالفعل عريسًا لا يمكن رفضه. لقد سأل زكي مروة، حين أبلغته بطلب روان، عن كل تفاصيل العريس التي عرفتها من روان. لم يكن هنالك من سبب للاعتراض عليه، محامي يعمل بمكتب والده الذي هو أيضًا محام معروف بالإسكندرية، من أسرة مُنعَّمة، سبق وتعرفت روان على والديه ولاقت لديهما قبولًا. كان ذلك اللقاء تمهيدًا للقاء آخر ينضم فيه الوالدان. كان زكي يتساءل حقًا حول تسامح ابنته لإحضار أسرة خطيبها المأمول إلى بيتهم البائس، خاصة بعد أن عرف من مروة أنهم يعيشون في شقة واسعة بجليم، وهي منطقة راقية وجميلة على عكس باكوس التي تُعَد منطقة شعبية. حين عاودوا جلوسهم المُربك بصحبة زكي في حجرة المعيشة، استطاع مرح روان الطبيعي أن يضفي لونًا مغايرًا، رغم عجزها التاريخي عن التواصل مع والدها، والذي بسببه اضطُرتْ إلى توسيط مروة بينهما لإبلاغه عن العريس. إلا أن وجود رامي في الغرفة أكسبها ثقة، فضلًا عن رغبتها القوية في إنهاء الموقف والخروج منه منتصرة. لذا كانت هي من أبلغت والدها في الجلسة أن رامي هنا من أجل أن يخطبها، أخيرًا بدا أول رد فعل من زكي حين هز رأسه موافقًا، وهو يطفئ سيجارته في المنفضة أمامه.

6

أكد رامي على ناهد موعدهما المرتقب من أجل مشاركتها في الانتخابات، ثم قبل رأسها وسلم عليهم بود دافئ، وقد أحبته بالفعل. سألته وهي تضحك، لو كان لديه أخ تزوجه لمروة، وهو تمنى معها لو كانت والدته أنجبت ولدًا آخر. هو لم يتعرف على مروة بعد، لكنه يعرف من روان أنها مَن مهدت لهما الطريق، ولذا هو ممتن لها، وبالتأكيد يحب كل مَن تحبهم روان. طلبت منه الجدة أن يبقى بعض الوقت، علَّ مروة ترجع فيتعرف عليها. لكنه أخبرها بضرورة أن يُوصِّل روان لبيتها قبل أن يتأخر الوقت.

وكان المطر قد توقف إلا من زخات قليلة مُنعشة، وشارع ناهد بركة طين سواء كان هنالك مطر أو لم يكن. مشى خلف روان على الرصيف الضيق، وقد أحاط وسطها بكفيه حرصًا عليها من الانزلاق في البركة أسفل الرصيف، كما أضاء لها الطريق بكشاف هاتفه. كانت تضحك كالعادة، والتقطت مروة ضحكتها رغم الظلام المطبق على شارعهم. التقيا عند نهاية الشارع، حيث تنتهي بركة الطين، ورأت مروة رامي؛ رفعت كشاف هاتفها تتصفحه مندهشة. نعم، عرفت تفاصيل مهنته وأسرته وسكنه، لكنها خمنت أن الشاب نفسه سيكون به عيبًا بالتأكيد. عرَّفتْهما روان وهي سعيدة بتلك المصادفة العظيمة كي يلتقيا، بينما

مروة سعيدة أن الشارع مظلم حتى لا تفضح ملامحها ما يعتمل داخلها. هدَّأتْ نفسها بالتفكير في فريد، هي أيضًا سيكون لها حبيب وسيم بل وغنيّ وناضج. لا بد أن رامي به عيب عميق غير ظاهر، ربما سيكون عنيفًا، سيضربها، أو يرفض أن تعمل مثلًا فيجعل منها ربة منزل بائسة.

بعد أن تركتهما واعتلت الرصيف الضيق بحرص التفتت تراقبهما بينما يبتعدان، كان رامي يتناول كف روان وينير لها الطريق، تضحك ضحكاتها الساذجة وهو يتأمل وجهها بملامح حانية. دُهشت مروة وشعرت برغبة جارفة في الاتصال بفريد الآن. انصاعت لرغبتها في التوِّ، وابتعدت نحو الجهة الأخرى من الشارع؛ كي تكون على مسافة ملائمة من شباك زكي. اتصلت بفريد واستدعت صوتها الباكي، سوف تحدثه عن افتقادها الشديد لأمها وشعورها بالضياع والاكتئاب.

الحق أنها كانت صادقة في مشاعر الضياع والاكتئاب، أما افتقاد ألطاف فقد ولى ذلك وتركته خلف ظهرها! اختفاء ألطاف منحها مساحة من الحركة لم تتخيل قط أن تحظى بها، لقد أعادت اكتشاف حياتها بعد ألطاف. تواجدها الكثيف في بيت هبة، وقرارها بالاستحواذ على فريد لم يكونا لولا اختفاء ألطاف. كل ما شعرت به من ضياع في البداية صار أدراج الرياح بمجرد انتقالهم إلى بيت ناهد، ذلك الانتقال التي رأته كابوسًا فتح لها أبوابًا ما كانت تراها من قبل.

رأى فريد رقم مروة على الهاتف، فاندهش من اتصالها به. ظن أنها تريد هبة وتعجز عن الوصول لها، ربما كانت بطارية هاتفها قد ماتت. رد عليها ليخبرها أنه بالخارج، وهبة في المنزل، ربما يعطيها رقم هاتفهم الأرضي. لكنه وجد صوتها باكيًا فأشفق عليها وأنصت لها، ثم عرض عليها أن يأتي ليصحبها فتبيت ليلتها عندهم. وافقت في التوِّ، وعاودت أدراجها عبر الشارع الضيق، وانتظرته بالخارج عند الشارع الرئيسي. حين وصل بسيارته كانت عيونها محمرة من البكاء الذي سكبته أنهارًا، وهي تستدعي كل مرير بحياتها، متخفية بظلام الشارع. بكاء لا بُد منه حتى يظهر على ملامحها أثره ويراها فريد. طلبت منه أن يتحدثا قليلًا في أحد الكافيهات، قبل العودة إلى منزله. أخبرته أنها لا ترغب في أن تراها فيروز على تلك الحال وإلا سيمرضها القلق. وأسهبت توضح له كيف أن فيروز تعاملها وتشعر بها بالضبط كهبة، ابنة أخرى لها. هي تريد فريد لها، لكن ليس وحده؛ تريد أن تكون أيضًا جزءًا من تلك الأسرة وهي زوجته. الكلمة لها رنين عجيب في أفكارها، تبدو حلمًا بعيدًا، أقرب للاستحالة. لو تحقق يا فريد سأعتني بك وبفيروز، سنظل أنا وهبة مقربتين، ستبقى أسرتك سعيدة، بل أشد سعادة لأني سأمنحك الحب الذي تعجز فيروز عن منحك إياه. نعم، تؤكد في كلامها أنها لا تود لفيروز أن تراها على هذا الحال؛ لأنها أيضًا تهتم بها وتحبها مثله. وتستكمل في أفكارها أنها ستوليها رعاية وحنانًا بمجرد أن يصير فريد زوجًا لها.

7

قبل تركهم للبيت القديم تشكلت عادة جديدة لدى فارس: صار يمضي وقتًا أطول بحجرته، ثم يغلقها بالمفتاح عند تركه البيت.

فكر مرات في محاولة كسر الخزانة الصغيرة، لكن الفكرة لم تكن عملية. قرر أن يستعين بجوجل، وكان غريبًا عليه أن يمضي بالإنترنت أوقاتًا طويلة لا يشاهد خلالها البورنو، وإنما فيديوهات أخرى لشباب ثِقال محتفين بعبقريتهم، كثيري الكلام يشرحون له كيف يمكنه فك شفرة الخزانة.

كل يوم يمضي عدة ساعات بين البحث على الإنترنت ومحاولة التوصل للرموز السرية للخزانة، ومروة ترتاب في أمره. حل بينهما شيء من السلام، حين أقنع رضوان بفكِّ أسرها ثم أقنعه أيضًا بضرورة البحث عن ألطاف. ذلك السلام منحها مساحة تشعر خلالها أنه بإمكانها أن تستفسر منه عن سر ما ألـمَّ به في الآونة الأخيرة. حين عادت يومًا من الجامعة عصرًا لتجده خلف باب حجرته المغلق فتطرق عليه الباب ولا يعيرها أي اهتمام، ثم تلج المطبخ بحثًا عن شيئًا يأكلانه، أخرجته رائحة السُّجق المقلي كما توقعت. جاء شارد الذهن والتقط طبقًا وقف يملأه من الحلَّة، ثم أراد العودة إلى حجرته فقطعت عليه الطريق.

- استنى، رايح فين؟

- حاكل جوه!

- لأ، خليك والنبي!

التفت إليها وقد تركز ذهنه على اللحظة الحالية. في الفترة الماضية كان يستشعر امتنانها باهتمامه الناشئ لإيجاد أمه، لكنه كان يحتقرها أيضًا. لو تخبره الرقم السري ستوفر عليه الكثير من الجهد والوقت، وتجنبه مشاهدة أولئك الأغبياء المتعجرفين على الإنترنت. فكر أن يسألها مرات، لكنه تراجع خوفًا من أن تظن أن ما بالخزانة سيكون حبل النجاة كي لا ينتقلوا من البيت.

خلال حياته الماضية، لم يتوقف قط ليراجع مشاعره تجاه تلك الفتاة التي نشأت بينهم كأخت شقيقة له بينما هي مجهولة الأم. لم يساوره تجاهها أي شعور بالغيرة والغضب. لكن تلك الورقة؛ أن تثق بها ألطاف دونه!

- عاوزة إيه؟

بإمكانه أن يأخذ منها الرقم السري غصبًا؛ في النهاية ألطاف ليست أمها، تلك ممتلكات أمه، ولا حق لها في أي شيء، لا حق لها حتى أن تبقى معهم في ذلك المنزل.

- ناكل سوا، نرغي شوية، تقول لي وصلتوا لإيه أنت ورضوان!

الحقيقة أنها تريده أن يتناول طعامه هنا، تتحدث معه قليلًا ثم تقوم بأي حجة وتتسلل إلى حجرته؛ لتعرف ما يخبئه فيها، فهو حين جاء المطبخ لم تسمعه يغلق باب حجرته، غالبًا لأنه جاء يأخذ طعامًا ويعود مباشرةً.

- مفيش جديد يا مروة، ما أنتِ عارفة، وعندي امتحانات!

- والنبي، أنت عاوز تقنعني إنك بتذاكر؟

- خلاص معدش ينفع ما اتخرجش، كل حاجة اتغيرت، رضوان مفيش منه فايدة، وأديكي شايفة أهُه شكل ألطاف، مش راجعة لو كانت عايشة أساسًا!

- إيه ده في إيه؟ تِفْ من بُقك، مالك بتتكلم عن موتها ببساطة كدة كأنه عادي، مش أمك دي؟

فقدت هدوءها الذي أرادت من خلاله الإبقاء على شيء من السلام بينهما يُغريه بالجلوس قليلًا إليها. لِمَ ترعبها فكرة أن اختفاء ألطاف قد يكون نهائيًّا إلى الحد الذي تُفسد معه خطتها؟ شعرت أنها بحاجة لأن تفهم بدقة ما يعتمل داخلها. حين حبسها رضوان بالبيت يوم وليلة، كرهت التصاقها السابق بالفراش لا تبارحه، أصبح الآن فرضًا لا اختيارًا. أدركت أن ذلك الجمود لن يعيد ألطاف إليها. وحين خرجت إلى الجامعة بفضل فارس، تلقتها هبة بين أحضانها، كان ما عانته باديًا بوضوح على ملامحها وجسدها الذي بان طوله حين فقدت الكثير من الوزن.

أدركت فجأة أنها غير مرتبطة بمواعيد المحاضرات؛ لأن ألطاف لا تراقبها وبالطبع رضوان لا يدري عن مواعيدها شيئًا. كانت بداية دخولها بيت هبة وتعلقها به.

فارس غضب بشدة من جملتها، مَن هي لتحكم على مشاعره تجاه أمه التي هي أصلًا لا تخصها في شيء؟

تحرك غاضبًا ليخرج من المطبخ، فسارعت تستوقفه معتذرة:

- معلش يا فارس استنى بس، ألطاف وحشتني، وكونها مش هنا موترني!

سحبت الطبق من يده، وعادت تضعه على طاولة المطبخ. عاوده التفكير في أخذ الرقم السري منها، قرر أن يجلس معها ليختبر تلك الفكرة قليلًا. لم يكن واثقًا، أراد منح نفسه بعض الوقت ليتأكد من فاعليتها. جلس وكأنه اقتنع بما قالته فهدأ.

انشغلا لعدة دقائق بمضغ الطعام، كان شهيًّا وهو اكتشف كم كان جائعًا وكم أن الطعام الساخن شيئًا جميلًا افتقده حقًّا منذ اختفاء ألطاف. مع دفء الطعام المتسلل إليه، تدفق شيء من المشاعر تجاه مروة، ربما ليست سيئة إلى هذا الحد، ربما بها شيء صادق جعل أمه تثق فيها، في النهاية هي مَن ربتها. هل يسألها عن الرقم السري، وينتهي من تلك المسألة؟

- أنا واقعي يا مروة، طبعًا ألطاف وحشتني وزعلان إنها ماتت..

- ليه بتقول ماتت؟

أعجبته فكرة أن يؤكد لها على موت ألطاف فهو مبرر قوي للانتهاء من الأمل والانتقال بواقعية نحو مرحلة جديدة؛ أن تعطيه الأرقام السرية مثلًا!

- علشان لو عايشة كنا لقيناها، سألنا عنها في كل ركن في إسكندرية، وأخوالك قالوا مجتش عندهم، ملهاش حد تاني تروح له!
- بس معاها فلوس ممكن تكون سافرت!
- باسبورها هنا.
- باسبور إيه، قصدي القاهرة، بورسعيد، أي مكان برا إسكندرية. وأنت إيش عرفك إن باسبورها هنا؟
- في الدرج جنب السرير يا مروة، علشان ده احتمال فكرت فيه فدورت على الباسبور.

لكمتها الفكرة الآن في وجهها، بالتأكيد وجد الخزانة ويحاول فتحها. لذلك يغلق على نفسه الحجرة فترات طويلة. كانت تتفحصه بملامح مُتوجِّسة، وهو قرأ شيئًا على ملامحها لم يتبينه. تقول إن ألطاف معها نقود، هل يعني هذا أنها لم تفتح الخزانة وتأخذ كارت البنك، أم يعني أنها بالفعل وجدته فخبأته دون أن تخبر عنه؟! صار أكثر ترددًا في سؤالها عن الرقم السري.

- طب واحتمال إنها في أي محافظة؟!

- حتعمل إيه في أي محافظة، وكل عيلتها من إسكندرية؟
- تبدأ حياة جديدة!
- وليه؟
- ليه؟ علشان حياتها مع رضوان ومعانا كانت جحيم!
- حتسيب عيالها علشان حياتها مع رضوان جحيم؟ ما هما متطلقين أصلًا على الورق. كانت تطرده عادي وتبدأ حياة جديدة في بيتها مع عيالها من غيره، ولا إيه رأيك؟ لأ يا ماما، هي ماتت ومفيش حاجة منطقية أكتر من كده!

انتهى من طعامه، ثم توجه إلى غرفته وأغلقها خلفه. هل يشغلها حقًا موت ألطاف؟ ولِمَ لا تتعلم الاستمتاع بالحرية التي اكتسبتها؟ هل يستحق فارس ورضوان أن تخبرهما عن حيازتها لكارت البنك، وبالتالي لمعاش أمها؟ الآن لم تعد واثقة لما تحتفظ به. في البداية أرادت أن تخلق لهما دافعًا للبحث عن ألطاف، الآن ليست واثقة من رغبتها في عودة ألطاف. في نفس الوقت لا تعرف كيف تخبرهما عنه، إذ أنهما سيعلمان حينها أنها تحتفظ به سرًّا كل ذلك الوقت، سيتذكران ويذكرانها بأنها ليست ابنة ألطاف، وبالتالي ليس من حقها امتلاك شيء يخصها. أفاقت من أفكارها وقد اطمأنت إلى وجود فارس داخل غرفته. توجهت إلى غرفة ألطاف، وفتشت عن الخزانة فلم تجدها لتستوثق تمامًا من ظنونها. أرادت أن تصفع نفسها بالأحذية، كيف أخذت فقط

المعاش من الخزانة ثم أغلقتها دون أن تفتش عن حُليِّ ألطاف الذهبية ثم تخبئها بعيدًا عن فارس ورضوان؟ لكم كانت غبية! بالطبع يعرفان بأمر حليّ ألطاف الذهبية، وتلك ثروة تمنحهما سببًا وجيهًا لِئَلَّا يبحثا عنها أو يحتاجا لها، الآن أصبحت أكثر ثقة في قرار إخفاء أمر حيازتها للكارت؛ المعاش ضمان أخير لها، حتى لو اضطرت إلى الانتقال معهم إلى بيت ناهد. تُرَى هل تواجه فارس بما عرفته من سرقته للخزانة أم تتجاهله؟ من الواضح أنه لم يتمكن من فتحها بعد. فلتتركه يتخبط في حيرته وكأنها لا تعلم عن أمره شيئًا.

8

الخزانات المنزلية يمكن فك شفرتها بسهولة من خلال أرقام ثابتة، لو حصل ونسي صاحب الخزانة أرقامها السرية. كانت الخزانة أول ما خطر على بال رضوان عقب اختفاء ألطاف، حليها الذهبية ثروة لا يستهان بها، لو تظن أنها ستعاقبه بترك البيت وحرمانهم من المعاش فهي واهمة. سحب كل ما في الخزانة من حليّ ذهبية، ثم حشاها بحلي ألطاف الزائفة (الأكسيسورز)، وترك نقود الشهر كما هي كي لا تلحظ مروة شيئًا.

كان أول ما ابتاع سروالًا جديدًا من الجينز، لونه كلون البحر، كلون سيقانها الممشوقة. اللون الرائق في حدقتي عيونها. صارت منى (ممرضة أمه)، مؤخرًا وبقوة، فتاة أحلامه. استأجر شقة صغيرة في مكان لطيف وهو يفكر فيها، ستكون سكن لهما. فرشها مبدئيًّا بعدة وسائد وبسط أخذها من البيت. ثم عند نهاية الشهر أبلغ أبناءه بضرورة ترك بيتهم؛ لأنه بغياب معاش ألطاف لن يستطيع تحمل كُلْفَة إيجار المنزل وملحقات السكن به من غاز وكهرباء وإنترنت وخلافه. بعدها نقل عفش ألطاف إلى شقته الجديدة واهمًا أبناءه أنه أودعه مخزنًا يخص أحد أصدقائه.

كان انتقاله لبيت ناهد فرصة سعيدة ليرى منى بشكل منتظم،

ويشارك زكي في معاش أمه. صار يجمع أصدقاءه بشقته الجديدة، على ألا يدفع هو شيئًا من ثمن الحشيش. من قبل كانوا يجتمعون في غرزة صغيرة يُصرُّ مالكها عليهم بتناول مشاريب غالية الثمن. ومؤخرًا قرر صاحبها تطبيق فكرة «الحد الأدنى». تشاجروا معه مرة، ثم اضطروا إلى العودة والرضوخ لابتزاز صاحب الغرزة مرات. صار اجتماعهم بها سخيفًا مكلفًا. كانت الشقة ملاذًا ممتازًا لهم.

ذهب يخبر أمه بقرب انتقالهم إلى بيتها لحين ظهور ألطاف مرة أخرى. حرص أن يأتي في نفس موعد منى لترى ملابسه الجديدة، ويمتلئ هو بوجهها. حين خطا داخل غرفة أمه لمح مؤخرتها الكبيرة عارية، شديدة البياض والمكتظة بطبقات من الدهون، سن الإبرة الدقيق ينفذ فيها بأصابع منى الرشيقة. تفحص جسد منى الممشوق، مؤخرتها الدائرية المتماسكة وسيقانها المنحوتة بدقة. مسحت مكان الحقنة بقطنة، ثم ضغطت عليها قليلًا. وتمنى لو يكون مكان أمه الآن. انتهت من عملها، ورفعت سروال أمه، ثم التفت بجسدها نحوه ليكتشف أنها ألطاف. لم يكن ذلك جسد منى حقًا، بل كان أكثر امتلاءً. لقد خدعته عيناه ليظنها منى، بينما هي ألطاف في نفس هيئتها حين التقاها للمرة الأولى، طويلة ملفوفة بغير امتلاء. ضحكت أمه ملء فِيها وهي تتأمل دهشته، وأشارت له أن يقترب:

- مش عارف مراتك يا رضوان. خسّت ورجعتلك أهُه، ابيضت

كمان زي ما طلبت!

كانت ألطاف هادئة تتأمله بملامح رائقة لا أثر للغضب فيها، بالفعل ذهب عنها الاسمرار الذي كان قد كسا ملامحها خلال السنوات الأخيرة، وجهها تظهر عليه آثار السن، لكن لم يزايله جماله. كيف عادت بيضاء نحيفة خلال شهر واحد! دهشته عقدت لسانه وجمدت جسده، لم يجد في نفسه قدرة على الاقتراب منها أو سؤالها عن تفاصيل غيابها وسبب ظهورها هنا في بيت أمه.

كانت تتفحصه بحرص واستقرت عينيها على سرواله فارتبك. هل تغضب لأنه ابتاع سروالًا وهي غائبة بدلًا من البحث عنها؟ ماذا ستفعل إن عرفت أنه باع معظم حليها الذهبية؟

- أزرق منور يا رضوان، مبروك يا حبيبي عليك!

ضحكت ناهد بصوت عال ومزعج، لا يدري لضحكها سببًا. كان مرتبكًا لا يزال، لا يجد لسانه ليجيبها به، أو يرحب حتى بعودتها. اقتربت منه في خفة، ضمته بشدة، وشعر بدفء جسدها. أحاطت رأسه بكفيها، هل تقبله هنا في حضرة أمه؟ عجز عن إبعادها؛ لا تزال قوية كعهده بها. ألصقت شفتيها بفيِّه وأطبقت على شفتيه ثم أقحمت لسانها يتلمَّس طريقه داخل فمه. أمه تضحك بصوت أعلى. لا يتمكن من مقاومة النشوة الصاعدة بجسده، ينتصب رغمًا عن إرادته، وهي لا تكف عن إقحام لسانها بفمه. تنزل يدها الأخرى وتفتح سوستة سرواله، ثم تضغط بشدة على عضوه حتى يتألم. ضحكات ناهد تنفذ بقوة داخله، وتكبله كما تكبله ألطاف.

تزايله النشوة إلى رعب هائل وألم مبرح. لسانها يستطيل ويبلغ حلقه حتى يكاد يختنق. تشد عضوه بشدة حتى ليشعر به ينخلع من مكانه. يستيقظ منقطع النفس. صارت كوابيسه مؤخرًا متكررة ومتعلقة بها، كل مرة تظهر له بصورة جديدة، تحاول قتله أحيانًا، أو تكون تائهة وتبحث عنه أحيانًا أخرى.

كان قد قرر منذ الليلة الماضية أن يزور أمه في نفس موعد منى ليبلغها بخبر انتقالهم القريب إلى بيتها، ويرى منى فيملأ نفسه بها ويتغلب على توتره الناتج عن تكرار كوابيسه. لكن الحلم أربكه حقًا، شعر أنه سيجد ألطاف في جسد منى. انتبه إلى أن منى بالفعل قريبة الشبه من ألطاف في شبابها، لم ينتبه لذلك الأمر قبل هذا الكابوس. أشعرته مخاوفه بالغباء وقرر تجاهلها فطرد هواجسه وانطلق إلى بيت أمه وبلغه قبل وصول منى. حين عرفت أمه بانتقالهم المؤقت لمنزلها، قالت له:

- أهلًا وسهلًا، بس ده مش مؤقت يا رضوان، ألطاف مش حترجع.
- ليه؟ هي كلمتك؟ عرفتي عنها حاجة؟!
- لأ طبعًا، حتكلمني أنا ليه؟ بس بالعقل كدة مادام مشت وما سابتش خبر وبقالها شهر، يا ماتت يا حبت عيشتها بعيد عنكم. أهُه تلاقيها قالت لروحها أضيع معاشي على رضوان وعياله ليه؟ ما أعيش الشوية اللي فاضلين لي وأمتع روحي، أنت مطلقها يا أهبل، يعني مش بعيد تكون اتجوزت كمان!

- ما في داهية..

لم يكن صادقًا في ما نطق به، الحق أن فرضية زواجها من آخرٍ أشعلته غضبًا وغيرة؛ كيف لم يخطر له أن ألطاف بإمكانها أن تتزوج فعلًا؟! تبدَّلت ملامحه وركبه الهَمُّ. ناولته ناهد سيجارة بعد أن أشعلتها.

- طالما في داهية، يبقى في داهية متفكرش فيها، كلم سيدة.
- أكلم سيدة أعمل بيها إيه؟
- تاخد بنتها، الشقة هنا ضيقة ومروة أمها أولى بيها!
- كسم سيدة مش حكلِّمها ومروة بنت ألطاف يا ناهد، وكلام في الحوار ده تاني مسمعش!
- ما ألطاف وغارت في داهية! خايف ليه تقول مروة بنت سيدة؟ كانت عاملة لنا الجملة دي بعبع لو حد نطق مروة مش بنتي حارميها، هي مروة لسه حتتربى؟ دي على وش جواز، وبيت أمها أولى بيها لحد ما يجيلها العدل!

جاءه صوت زكي من الداخل متدخلًا في الحوار:

- أمك صح يا رضوان، الشقة ضيقة ما تسعش كل ده. طالما جاي تعالى من غير مروة!

فزع رضوان من مكانه يكاد يفور غضبًا وعلا صوته حتى بلغ منى التي كانت على مدخل البناية. تَدَخُّل زكي في الحوار

منحه فرصة ليصب عليه غضبًا لا يحب أن يصبه على أمه. كادا يشتبكان حين طرقت منى باب المنزل وهو يجلس بالصالة مغتاظًا؛ لن يُعرِّض مروة لموقف كهذا، عاشت عمرها كله ببيتهم في سيدي بشر، والآن يضعها في غرفة سيدة بعزبة فتا مع رجل غريب وأربع صبيان وبنت! أسرة فقيرة لا تعرف عنهم شيئًا ولم تلتقِ بهم طوال حياتها. وهي التي تتأفف من منزل جدتها وتراه متواضعًا؛ يجعلها تسكن بالعشش! الحقيقة أنه كان يحب مروة حب الأب لابنته. نعم شعر تجاهها بانجذاب جنسي مرات، لكن منذ أن خرجت لهما مريم من الصندوق ذاهلة، وهو يرى فعلته بعيون الصغيرة، فينفر من نفسه. صار يراها ابنة حقًا وصدقًا.

كان يراقب منى من مكانه، ينظر في وجهها فيشعر بالراحة، يتأمل جسدها فيشعر بالنشوة. أراد أن يصحبها الآن إلى جولة على شاطئ البحر. لمح مفتاحًا كانت قد وضعته وهي تدخل على طاولة صغيرة جانب الباب، دخل الحجرة بحجة أن سجائره انتهت. وحين انشغلت ناهد باستخراج سيجارة من طيات صدرها، سحب المفتاح بخفة ودسَّه في جيبه. أخذ السيجارة وعاد إلى الصالة، يصله صوت منى كأجمل ذبذبات تتلمَّس طريقها خلال طبقة أذنيه فتتدفق إلى رأسه وقلبه تنعش جسده بالكامل. حين انتهت من عملها وخرجت، تبعها دون أن يُلقي التحية على أمه.

9

لو صادفتَ حبًّا خلال رحلة حياتك، لو شعرت بصدقه من أعماق قلبك، فهو الحب الأبدي، حكايتك الأسطورية.

المركب الورقية التي صنعتها مروة طارت بفعل ريح عاصفة، ولم يسقط المطر بعد فالمركب لا تزال بخير، وعليهم تتبعها قبل انهمار الأمطار فتفسدها. المركب هائمة في السماء تتقاذفها الريح وهم يطاردونها من موقعهم على الأرض. بدت كأنها اكتسبت في السماء حياةً، تطير من مكان لآخر كعصفور. كان فريد شديد التوتر، وهو يخشى أن يفقد أثرها. لم يجد سيارته ولا حذاءه، وأنزل أناسًا لا يعرفهم من سيارة الأجرة وجعل السائق يتتبع المركب الورقية حتى حطت أخيرًا أعلى عمود كهربائي. حين همَّت مروة بتسلق العمود لالتقاطها منعها؛ قد يسقط المطر في أي لحظة وتصعقها الكهرباء، ومروة رقيقة هشة كمركبتها الورقية. كانت جميلة حقًا، وقد برعت في صناعتها. أخذ يقلبها بين كفيه، ويتأمل دقة تفاصيلها، ثم تذكر حين كان يهوى صناعة المجسمات الخشبية الصغيرة، في ورشته القديمة. وضع مركب مروة جوار مراكبه الخشبية، وهي أخذت تتأمل مجسماته منبهرة بدقتها وجمال تفاصيلها، مراكب خشبية صغيرة، مقاعد وطاولات ومجسمات لآلات موسيقية، عود وبيانو. لحقتهما فيروز

إلى الورشة وقفت بالباب تتأملهما سعيدة، قالت لفريد: «يلا حتتأخر على عروستك» وحين تنحت جانبًا رأى هبة في ثوب زفاف واكتشف أنه يرتدى حلة عريس، كانت الليلة دخلته على ابنته، ومروة صارت غاضبة فهشَّمتْ مجسماته جميعًا.

في المكتب، كان فريد شارد الذهن يستعيد تفاصيل حلمه مندهشًا. لا يدري حقًا كيف يفسر ما يشعر به تجاه مروة، هو يشفق عليها من ظروفها، هذا كل ما في الأمر. هي كهبة بالنسبة إليه. لما لا يفكر في تزويجها لواحد من أبنائه مثلًا؟ لكن أحدًا منهم لم يُظهِر نحوها اهتمامًا أو انجذابًا، رغم كثرة تواجدها في منزلهم تلك الأيام. ورشته الصغيرة كانت التفصيلة الملحة حقًا من حلمه. البارحة، حين كان مع مروة في ديليس، صنعت من فلاير إعلانات ناولهم إياه طفل وهما في الطريق، مركبة ورقية. منذ فترة طويلة وهو يفتقد شغفه القديم في صناعة المجسمات من الخشب، العمل اليدوي كان شغفًا يُمْضي بصحبته ساعات طويلة دون أن يدري بها.

يداخله شيءٌ من الخوف متعلقٌ بموعده اليوم مع مروة، هل يتصل بها ويغير لقاءهما؛ لأن يتناولا الغداء في المنزل بصحبة أسرته؟ لكنها أخبرته أنها تود التحدث معه في أمر يؤرقها، هو كأب ناصح لها. عليه أيضًا أن يحترم خصوصيتها؛ في بيت الأسرة لن تتمكن من الحكي.

حين دخل كافيه إمبريال كانت قد سبقته، أمامها على الطاولة ستة مراكب ورقية صغيرة صنعتها من تذاكر الترماي. لم تكن ملامحها باكية، بل بدت مشرقة وجميلة، وقد سقط شعاع الشمس على وجهها لينير حدقتي عينيها البُنيتان الواسعتان.

- عارفة إني زمان كنت بعمل مجسمات من الخشب، عندي ورشة في بيت أبويا من زمان مرحتش هناك، مراكبك فكرتني بيها!

- ينفع تفرجني على شغلك؟

- آه طبعًا أكيد.

- إمتى؟ النهاردة بعد الغدا؟

شعر بشيء من الارتباك وهو يتذكر حلمه، فيروز، هبة في فستان الفرح تُزَف إليه هو؟ ما معنى هذا الهراء؟

- نشوف الوقت....

- فارس أخويا، تاهمني بسرقة دهب أمي، أمي اللي هي مش أمي الحقيقية!

- إزاي ده؟ إيه دليله؟

- لقى خزنتها وفتحها ملقاش الدهب، والله أنا ماخدتوش والله! حسرق أمي؟

الآن عاد وجهها الباكي كما اعتاده كلما التقيا.

- مش فاهم إيه علاقتك أنت بالخزنة؟

- ما هو عرف إنها عطتني الأرقام السرية قبل ما تختفي، والله أنا أخدت المرتب حطيته في البيت وخلاص، معملتش أي حاجة، مسرقتش الدهب!

الحقيقة أن تلك الذكرى بإمكانها أن تستدعي بكاءً حقيقيًّا، كان يومًا كريهًا حين اكتشف فارس أخيرًا كيف يفتح الخزانة فما وجد فيها إلا بضع حليّ مزيفة، اقتحم عليها غرفتها غاضبًا هادرًا بصوته المزعج القبيح، للمرة الأولى في حياتهما معًا يضربها ويهينها بأمها الحقيقية، أخبرها ما ترفض سماعه منذ أن أدركت أن ألطاف ليست أمها الحقيقية، عن سيدة الخادمة وحياتها في صفيحة معدنية وإخوتها الشحاذين. كانت كلماته أقسى عليها من لكماته. استطاعت أن تتنصل من قبضته وتهرب من البيت، ثم اتصلت مستغيثةً برضوان، الذي أثبت أبوته الصادقة لها للمرة الأولى حين عاد بها إلى البيت، وواجه فارس وناوله لكمة كسرت أنفه لأنه ضربها. برَّأ رضوان ساحتها في التوِّ وأعلن أن ألطاف باعت كل حليها قبل اختفائها، وأودعت نقودها في حساب بالبنك باسمها هي لا يستطيع أحد سواها التصرف فيه. الحقيقة أن تلك الذكرى انتهت نهاية سعيدة حين أحست مروة صدقًا أن رضوان - رغم كل شيء - أبٌ لها.

كانت تراجع خطتها مؤخرًا: هل ستستمر في استدراج فريد

بالمأساة والبكاء؟ لذا جاءت اليوم دون آثار بكاء تستطلع انجذابه نحوها لو تبدت له رائقة مبتهجة، إلَّا أن العادة تحكمت فيها، كما أنها لا تجد موضوعًا هامًا وخاصًا تحدثه عنه. استأذنت منه إلى الحمام، غسلت وجهها وتعمدت الغياب، ثم عادت منتعشة وقد جددت زينتها.

- بابا كلمني يا فريد،

ارتبكت، أن تخاطبه باسمه وليس «عمو»، لكنها أحبت وقع الكلمة على لسانها، لو أرادت التقدم في خطتها عليها أن تكون واثقة الخطى.

- خلاص الحقيقة ظهرت، وهو هزأ فارس، وِشِّك حلو عليا يا .... فريد!

نطقت اسمه هامسة، وحمرة الخجل تتصاعد إلى وجنتيها، وهو لم يستوعب تمامًا ما يشعر به نتيجة سماعه لوقع اسمه على لسانها، رآها جميلة، وأحب اسمه منها، فرح بحل مشكلتها حتى دون مساعدة حقيقة منه. لكن في مؤخرة رأسه كان يرى فيروز، ابتسامتها الغريبة وهي تخبره أن عروسه التي هي ابنته في انتظاره!

رفعت رأسها الخجول تتأمله مبتسمة، يرى خلفها من خلال زجاج المقهى الهواء يحرك أوراق النخيل.

- حاتشتي؟

كانت أيضًا تتأمل سماء ميدان محطة الرمل. من موقعها كان بإمكانها أن ترى البحر خلفه، سحب رمادية ثقيلة تكاد تلتقي بالزرقة الغامقة للبحر، هنالك عند الأفق.

- الجو جميل...

ومراكبها الصغيرة أيضًا بدت جميلة، وهو لم يزُر والده منذ فترة فلِمِ لا يعرج عليه ويفرجها على ورشته القديمة؟

10

ترتفع الخطوط الرمادية، تتحرك في موجات لطيفة، تنتابه رغبة في لمسها لكن ذراعه لا تستجيب لأوامر عقله، لها ملمس قطنيّ لطيف كسحابات الشتاء الداكنة بسماء الإسكندرية. الحجرة الصغيرة واضحة بتفاصيلها، لكنها صارت جزءًا من عالم أوسع لم تعد الجدران تحده ولا المسافات تعوق انكشافه. الخطوط المستقيمة تتماوج، تتحرك من إحداثيات متنوعة ثم تلتقي عند نقطة بدت كثقب أسود.

الزمن فقد هويته المألوفة وصار متجسدًا بينهم، فارس الصغير اللطيف، فارس طفل مهان، فارس على بطنه وقد ركبه رجل كريه، فارس صار شابًا طويلًا لكنه عاجز عن الانتقام، كل فارس منهم يقف على رأس شبحه ليتأمل تفاصيله بدقة، كل فارس منهم يتأمل فارس الحالي، يدفعون الجمهور العريض برأسه إلى التصفيق.

«ها هو نجمنا، مخلصنا!

ها هو، تأملوه جيدًا، راقبوا خطواته بدقة وفخر!

الآن!

الآن، حالًا،

سيخذلنا!»

شوقي وشاهندي وشامي (أحمد فهمي، وهشام ماجد، وشيكو) يتجادلون جوار سيارتهم، بينما الرجل يبدل لهم إطارات السيارة. «معلش سامحه عنده ظروف».

يضحك زاهر ملء فِيه، لا يمل الضحك من هذا المشهد ذاته.

صوتًا يتردد داخل عقل فارس:

«أشعلنا النار في غابتنا،

ليختفي الملل

فجاء هو يبصق علينا سخفًا».

لمس فارسُ أنفه بأطراف أنامله، هل تغير شكله بأنف مكسور؟ هل بإمكان أحدهم أن يلحظ قلبًا مكسورًا؟ ليس أن رضوان لم يضربه من قبل، لكن أن ينتصر للعاهرة ابنة الخادمة. حتى كارت البنك لم يعثر عليه داخل الخزانة، كل ما خرج به منها هو مفتاح بيت أسرة أمه بالعجمي، وجده داخل ظرف صغير سطَّرت عليه ألطاف «مفتاح بيت بابا». كان واثقًا أنه سيعثر على أمه هناك، تعجب كيف فاتهما هو ورضوان ذلك الخاطر في أثناء بحثهما

عنها، في اليوم التالي مباشرة زار البيت، ولم يجد فيه إلا ترابًا.

ويعادوه الصوت:

«لا يهم، فكلكم نمل

يأتي الشتاء وتختبئون بالحجور

تأكلون

تتكاثرون

أنا أبقى هنا، لا يخيفني المطر، ولا تعبث بجسدي الريح الثقيلة».

ويسأله زاهر:

- دبوس كمان؟

يومئ موافقًا. مر الشهر ثقيلًا ككابوس متصل، والبارحة أنعمت عليه ناهد بنفحة من النقود، أعطته إياها بعد إلحاح أسبوع كامل، وقد أقنعها أنه سيرسب هذا العام أيضًا لو عجز عن حضور كورس هام.

دسَّ زاهر الدبوس في الخرم الذي صنعه بالسيجارة، ثم دسّـَها بالكوب الصغير وأغلق فوهته بكراسة المحاضرات. حين امتلأ الكوب بدخانه الأبيض «لبِن»، ناوله لفارس ينهل النفس الأول من

اللذة.

كان زاهر مندمجًا مع فيلم «بنات العم»، بينما فارس مندمج مع أشباح رأسه.

«هل يمكنك إخبار أحدهم بكل شيء؟ أي أحد؟

ماذا تعني لك الشجاعة؟ يسأله فارس الصغير، هل تظن أنك لو عبرت نيران الغابة بأرجل عارية ولباس داخليّ، ثم خرجت بحروق على جسدك تقص للعالم بطولاتك، فأنت شجاع؟ يكف فارس المُسَجَّى على بطنه عن الصراخ ويضحك بهستيريا:

أنا أشجع منك؛ حين عدتُ لم أخَف من قص حكايتي المخجلة على أمي!

تحملت كل الإهانات اللاحقة بقلب بارد!

يود الآن أن يقتل فارس الصغير.

لِمَ قص ما حصل معه؟

اللعنة على شجاعته الساذجة،

ليس علينا إخبار الناس بكل الحقائق».

- مش كل حاجة تتقال يا عرص!

- نعم؟
- هه؟ مش بكلمك
- آآآه ما أنت بقالك شوية متسطلتش، شكلنا تقلنا العيار، كفاية ده آخر دبوس!
- لأ، لسه!

أخرجه زاهر من الدوامات الكثيفة إلى سطح الحجرة الصغيرة، أمام التلفاز، مع شوقي وشاهندي وشامي، طرد عنه كل الفوارس، وعصر الزمن ليعود إلى صورته الشبحية.

يمر الوقت عليه دون أن يجد مخرجًا، يختنق كل ليلة ببقائه مع زكي ورضوان في ذات الغرفة، تلتقط أنفه روائح الشيخوخة متسربة من حجرة ناهد، تذكِّره بمرور الزمن وضياع الوقت، في الرابعة والعشرين من عمره ولم يتخرج من الجامعة بعد، عليه أن يترك المنزل، لكن أولًا أن يجد عملًا أو يعثر على ألطاف ببساطة.

صنع زاهر لهم دبوسًا أخيرًا أعاد تجسد الزمن في قلب الغرفة. ألطاف هائمة على وجهها في صحراء رمادية شاسعة، الدخان يلف جسدها الضخم، تمد ذراعيها في محاولة لتَلَمُّس طريقها، يتأملها من مكانه دون حراك، يسمع صوتها في أذنه:

«تتساقط المعاني عن جسدي تاركة إياي عارية بشكل كامل، ضعيفة أنا. جسدي ليس قويًّا كفاية ليصمد حتى ربيع آخر، لقد تآكل تمامًا من الداخل. هذا الجسد الضخم ما هو إلا غلاف يخبئ

التآكل التدريجي الحاصل بداخله».

الورقة، كيف نسى تلك الورقة؟ أميرة ورقم الهاتف بداخلها. قام من مكانه في محاولة لاستعادة توازنه، أين احتفظ بتلك الورقة؟ عليه أن يجدها الليلة، الآن.

11

تمهل رضوان قليلًا بينما يراقب منى تخطو بحرص على الرصيف الضيق، كي لا تنفلت أرجلها وتغطس ببركة شارعهم. جسدها الرشيق يتمايل وهي تحاول حفظ اتزانها كلاعب الجمباز بالسيرك. حين انتهت إلى رأس الشارع أخيرًا واستطاعت أن تشد الخُطى دون حرص، خاف أن يفقدها. رضوان لا يهمه عادةً أن يخوض في طين الشارع مسرعًا فيلحق بها، لكنه اليوم متأنق في ملابسه الجديدة. شمس العصر دافئة وقد أعقبت شتاءً صباحيًا لطيفًا. يود أن يصحبها إلى شاطئ البحر. نادى عليها بصوت عالٍ خرج أجشًا، وخاف أن ينفرها. مدَّ زكي رأسه من النافذة على حسه، فاغتاظ رضوان وارتبك من تدخله في الموقف. هي التفتت متسائلة، فلوح لها بالمفاتيح التي كان قد أخرجها من جيبه. خبطت جبهتها بكفها في دهشةٍ، ظنًا منها أنها نست مفاتيحها مرة أخرى. الحق أن منى اعتادت أن تنسى مفاتيحها أو هاتفها المحمول، وبعد أن ترحل بفترة تعود فتطرق باب ناهد وهي تضحك من نفسها مُحرجة. كادت أن تتحرك عائدة إليه، فأشار لها أن تنتظر.

- آه أنت عاوز تشقطها؟

كان صوت زكي عاليًا حادًا وكريهًا في أذن رضوان، يضحك كشيطان، ويتعمد أن تلتقط منى ما يقوله. يحاول رضوان تجنُّب الشجار معه، يريد أن يبتعد بصحبة منى عن وجه زكي الكريه. لم يطق صبرًا أن يمر متمهلًا على الرصيف الضيق، وقرر أن الخوض في طين الشارع أهون من التباطؤ ليصير فريسة للسان أخيه، أو يُضطَر إلى ضربه أمام عينيها.

على رأس الشارع، لم يكن رضوان يسمع بوضوح ما يتلفظ به زكي. قالت منى:

- تعبت نفسك وبهدلت لبسك، كنت حاجي أنا، زكي بيقول حاجة؟

ضحك مرتبكًا وأسرع يخطو بعيدًا كي تتبعه ويبتعدا. تبعته راسمة على ملامحها دهشة كأنها لا تعي شيئًا مما يفعله، لِمَ لَمْ يناولها المفاتيح، ولماذا هو متعجل؟ الحق أنها سمعت جملة زكي بوضوح، وساورها حرجٌ أرادت إخفاءه بسؤالها عما يقوله زكي. حين تحرك رضوان مبتعدًا، شعرت بالراحة حقًا؛ لأن التواجد قرب زكي دومًا ما كان يوترها، نظراته المتفحصة، أسنانه السوداء وابتسامته اللزجة الصفراء. رضوان بالنسبة إليها ليس أفضل منه حالًا، لكنه شخص محتمل، على الأقل نظراته لها لا تضايقها. في البداية كانت تربكها بعض الشيء، وحين صار يتواجد أكثر في بيت والدته شعرت بالألفة تجاهه. شيء في شخصيته طغا على

شكله بالنسبة إليها. غريب أن تشعر أنه جذَّاب رغم قصر قامته، وشعره المشتت في فوضى حول رأسه الصغير، والأسوأ تلك الذقن العجيبة التي يربـيـها أسفل فمه فقط، تذكرها بالمقشات القديمة. ليته يحلق شعر رأسه وذقنه؛ شكله يثير غيظًا داخلها.

في الشارع الرئيسي وقف رضوان وناولها المفاتيح قائلًا:

- مش أنت بتركبي من هنا؟ إيه لازم تنسي حاجة عندنا؟

- لأ عادي بركب من مكان ما كنا واقفين؟ هو حصل إيه جريت كدة ليه؟

- فاكرك بتركبي من هنا قلت أوصلك.

- أنا مسطولة معلش، تعبتك معايا، كنت حرجع أخدهم أنا!

- تعبك راحة يا ستي، ده إحنا اللي تاعبينك علشان حقنة أمي، غيرك كتير جم مرة ورفضوا يكرروها!

- أنا بحب طنط ناهد حقيقي، ولا يمكن أتخلى عنها أبدًا.

الحق أنها لن تتخلى عن ناهد لأنها كريمة، ما تأخذه منها هو ضعف أجرتها الطبيعية، كما أنها تزيد عليهم أجرة المواصلات وهو ما لا يفعله بقية مرضاها، وليست بعيدة عن منزلها وفي الطريق لديها زبائن آخرين. عرفت منى من ناهد بأمر اختفاء زوجة رضوان، كانت تتساءل لو كان كريمًا كأمه، هل يمتلك نقودًا أصلًا؟ كيف هو دخله يا ترى؟

منى في بداية الأربعينات من عمرها، لم تتزوج قط، رغم كونها تمتلك جسدًا رشيقًا يليق بفتاة عشرينية، وعيون زرقاء، إلا أن ملامحها كانت جامدة، فيها لمحة ذكورية منفرة لأغلب الرجال.

- يعني مش حينفع تركبي من هنا ولا إيه؟ أنا ممكن أوصلك، المكنة بتاعتي أنا سايبها قريب على بعد شارعين.

- لأ طبعًا كفاية تعبتك لحد كده!

- أنت ساكنة فين؟

- مش بعيد خالص، في بُكلى، متقلقش!

- لأ كده يبقى ضروري أوصلك، أنت على سكتي أصلًا، ولا متحبيش تركبي ورايا؟ عادي على فكرة البنات بتطلب المكن بتاع أوبر ده، الزمن اتغير، وأنتِ حتمسكي في المكنة مش فيا.

- عادي أنا مش مكسوفة، مش عاوزة أتعبك بس!

- ما قلت في سكتي، الله؟ يلا!

سارا متجاورين يتناوب عليهما دفء الشمس والظلال التي تخلقها البنايات المتقاربة، كان يفكر كيف بإمكانه إقناعها أن تركب خلفه حتى شاطئ البحر حيث يتمشيان لبعض الوقت.

- الجو جميل، خسارة الواحد يضيعه قاعد في البيت، أنتِ مِروَّحة ولا لسة شغل؟

- مِروَّحة علطول.
- حتتغدي في البيت؟
- آه!
- أنا جعان وأمي مطبختش النهاردة.
- اتفضل عندنا، تنور!
- لأ، اتفضلي أنتِ معايا ناكل في حتة على البحر، ده أقل واجب حتى أضمن إنك تكملي معانا ومتطفشيش زي زمايلك وأحتاس أنا مع ناهد.
- متقلقش والله!
- وماكلش لوحدي!

حسنًا، لماذا لا تمنح لنفسها فرصة التعرف عليه؟ لو اتضح أن له دخل معقول قد يكون بالأمر احتمالات أخرى. التفتت نحوه فالتقطت ذقنه الهائش يحركها الهواء، وكأنها تكنس ذراته. ساورها نفور وغيظ، وأرادت التنصل منه. لكنه لم يمهلها.

- ماشي؟

حسنًا، ربما واتتها فرصة أن تقترح عليه حلق ذقنه، ثم شعره.

12

من شرفة الطابق العاشر، حيث تعيش هبة وأسرتها، يبدو العالم مختلفًا. رغم كثافة السحب المتجمعة في طبقات أمام القمر المكتمل، إلا أن الليلة كانت رائقة، منعشة. أغمضت مروة عينيها وسحبت نفسًا طويلًا وامتلأ رأسها بذكريات هذا النهار بالذات، تلك مرتها الأولى أن تتسوق من مول كبير كسان استفانو. كانت ألطاف تبتاع لها ملابسها من محلات بائسة قديمة في محطة الرمل، طقم واحد في كل موسم. أما أن تتسوق مثل صديقاتها، فكان شعورًا تختبره للمرة الأولى. الآن فقط عرفت السعادة التي يتحدثون عنها بعد التسوق. إلى جوار كرسيها البلاستيك عدد كبير من الأكياس، أخذت تتأملها في نشوة. ابتاعت ملابس وزجاجة عطر ومستحضرات تجميل. كارت البنك كان حقًا منحة ألطاف الأخيرة لها.

ارتبكت وساورها ذنب حين حضرت ألطاف عند مقدمة رأسها، لمس قلبها شيء من حنين تجاهها، كم تود لو تطمئن عليها فقط، أن تعلم أنها في حال أفضل، ربما تزوجت رجلًا طيبًا يحبها حقًا، ويعوضها عن جحيم حياتها مع رضوان.

- هوهوهوهووو رحتي فين؟

جاءت هبة إلى الشرفة معها أكواب من الكاكاو الساخن، دون أن تحس مروة بحضورها. التفتت على وقع ندائها وشعرت مباشرة بدفقة من الحب تجاهها، ودت أن تقوم فتضمها شديدًا، الآن. وضعت هبة الأكواب على الطاولة ورأت دموعًا بعين مروة. ما لا تعرفه هبة حين اقتربت منها مشفقة ومواسية، ظنًا منها أن ما يبكيها افتقادها لأمها، أو سلوك فارس أو رضوان معها كالعادة، أن ما كان يبكيها حقًا في تلك اللحظة، هي مشاعر مختلطة وثقيلة ما بين الحب والذنب تكنها لهبة، قد تكون خطتها لامتلاك فريد بداية الهلاك للأسرة التي احتضنتها دون مقابل إلا النبل والصداقة ودفء قلوبهم.

لكنها لم تنتبه لكونها تبكي إلا حين اقتربت منها هبة قلقة تسألها عما يضايقها، فرفعت أصابعها تجفف تلك الدموع المتمردة على سعادة التسوق، وابتسمت لهبة ابتسامة صادقة وهي تهز رأسها نفيًا وتخبرها أنه الحنين، والحنين ليس حزنًا. لا تريد أن تكون حزينة، لقد أثقلت على أسرة هبة بأحزانها دهرًا، وهبة اليوم سعيدة، قلقة.. سعيدة لأن عمر كان معهما في رحلة التسوق، وكذلك خالد. بَدَيَا على وفاق حقًا؛ حبيبها وأخوها الذي اطمأن إلى أسرة عمر، سأل عنه وتأكد أنه من أسرة طيبة تليق بهم، تلك كانت سعادتها. أما ما يقلقها أنه عند نهاية اليوم بعد رحيل عمر، طلب خالد منها أن يتحدثا مع أبيهما عن عمر. لكن هبة خافت، أرادت تأجيل تلك الخطوة حتى نهاية العام كي لا يكون عمر طالبًا؛ تخشى رفض والدها وبالتالي تتعقد علاقتها

مع عمر. كما كانت تخشى أن يحرمها تدخُّل أهلها من لقائه ورؤيته بشكل منتظم.

جلست هبة على المقعد المجاور لمروة، تفصلهما الطاولة الصغيرة وأكواب الكاكاو. رفعتا رأسيهما تشاهدان اكتمال القمر الذي تفرقت من عليه السحابات الثقيلة إلى شذرات متقطعة شفافة، تمر من فوقه دون أن تخبئه.

- حعمل إيه؟ خايفة يا مروة، خايفة أوي!

لذلك بالذات أرادت مروة ألا تبكي الليلة؛ كي تمنح لهبة فرصة أن تكون هي مَن تحمل هَمًّا تشكوه إليها، أرادت أن تكون لها أحيانًا - كما كانت هي على الدوام - حجرًا صلبًا تتكئ عليه فتُفرِّغ همومها.

- متخافيش حبيبي، باباكي طيب!

- مش في الحكاية دي لأ، في الآخر هو أب شرقي عادي معندوش بنات تصاحب.

- أنت مش مصاحبة، أنت بتحبي عمر وبيحبك ومتفقين تتجوزوا!

- ده لسة متخرجش حتى، ناهيكي إنه يلاقي شغل، افرضي بابا قال يبقى يرجع لما يشتغل ويبقى راجل، وقال بقى لحد ما ده يحصل مفيش حاجة اسمها تتقابلوا؟

لو شعر فريد بالذنب تجاه هبة، لو شعر أنه مثلها ضعيف

يحب، لن ينهي علاقتها بعمر. لو تساعدها هبة في الزواج من فريد، ستساعد نفسها في استمرار علاقتها بعمر. فكرة عبقرية حقًا، وكفيلة أيضًا بأن تنهي صداقتهما للأبد، لو شعرت هبة أن وجود مروة غدا خطرًا على أسرتها، تُرَى أيًا من هذا سيكون رد فعل هبة، وكيف تتأكد مروة؟

ارتشفت من كوب الكاكاو دفئًا بطعم الشوكولاته. أصبحت السماء صافية، لا سحب هنالك تحجب القمر. لو تسأل هبة كأنه على سبيل الدعابة عن رد فعلها لو قرر فريد أن يتزوج؟ لا، بالأمر مخاطرة، والجو رائق وهي سعيدة تفضل أن تستمتع بذلك الصمت الآن.

- أنا فضيت لك رف من دولابي على فكرة.

أومأت لهبة مبتسمة وممتنة. لم تحب أن ترد عليها بكلمات تخدش ذلك الهدوء المحبب. بالطبع لن ترجع بيت ناهد بمشترياتها الجديدة. أخبرت مروة أنها تخشى أن يسرقها فارس ويبيعها من أجل شراء الحشيش.

13

بعثر فارس كل ثيابه خارج حقيبة السفر التي لم يفكر قط في إفراغها منذ أن انتقلوا إلى بيت ناهد، متوترًا يبحث في جيب كل سروال يستخرجه بكفوف مرتعشة، وزكي يراقبه من مكانه جوار النافذة.

- هو أنت كنت بتحط الحشيش في جيوبك ولا إيه؟

سأله زكي بصوته الأجش المنفر، ثم لفظ ضحكة حلقية ساخرة من توتره الجلي. كان في حلق فارس بلغم أراد حقًا أن يبصقه على وجهه، لِمَ يعيش ذلك الرجل، لِمَ وُجِد أصلًا في الحياة؟ سابقًا لم يكن زكي يخطر له على بال، لكنه الآن صار يلازم حياته كناموسة تعجز عن فعصها بجريدة على الحائط، فتنتهي من إزعاجها الفارغ للبشرية. عليه أن يعثر على تلك الورقة، كيف فاته أن يتأكد من حفظها جيدًا بمكان آمن ومعروف له. يكاد يكون واثقًا أن الرقم بالورقة سيدله على مكان ألطاف الحالي، يصالحها ويخبرها أن تعود فتعيش معه ومع مريم، أولادها الحقيقيين، وأن يلفظوا رضوان ومروة من حياتهما إلى الأبد. سيعتذر لها صادقًا ويخبرها كم ساءت حياته بعد غيابها. حين تسيطر على الإنسان رغبة واحدة ومُلِّحة، حين يشعر بالعجز عن

تلبيتها، يؤلمه جسده بالكامل، وجسد فارس الطويل فارغ هزيل، لا يتمكن من السيطرة على الرعشة التي تجتاحه. الحقيبة خلت وملابسه مبعثرة حولها في كل مكان في الغرفة الضيقة التي تجمعه ليلًا برضوان وزكي، ولا أثر للورقة داخل الحقيبة، تجمد للحظات ذاهلًا.

- لم كراكيبك دي يا ابني، هي الأوضة ناقصاك؟

صوت زكي المزعج الكريه، ملامحه اللزجة الثقيلة. وجد نفسه يتناول حقيبة السفر الخالية ويقذفه بها فيحسن التوجيه، إذ تلتقي بوجهه مباشرة ويفقد توازنه فيسقط من على كرسيه. وقبل أن يُبدي زكي أي ردة فعل، كان فارس قد هرول تاركًا الحجرة ثم البيت، ثم خاض في طين الشارع لا يلوي على شيء. هام في الشارع وقد ازدوجت الرؤية في عينيه، يلتقط أنفاسه بصعوبة، صدره يعلو ويهبط، لا يجد في جسده توازنًا. شعر أنه خفيف كريشة وأن الهواء شديد والعالم واسع، شديد الاتساع، وهو لا شيء على الإطلاق، تائه وخائف، يشهق بقوة ويسقط دون أن يدري مكانه. يضغط سائقٌ المكابح قبل أن يصدمه، وتزعق عجلات السيارات خلفه وهي تحتك بالأسفلت، يتجمع الناس ويسحبونه من منتصف الشارع إلى الطِّوار، يُخرِج صاحب أحد المتاجر كرسيًا ويجلِسونه عليه. يناولونه كوبًا من الماء فلا يشربه. غائبًا عنهم، يشهق ويلتقط أنفاسه بصعوبة، وينتحب مناديًا ألطاف. يبلون وجهه بالماء، فيفيق رويدًا دون أن يدرك ما دفع به إلى هذا الموضع، ولِمَ يتجمع الناس حوله.

14

«تتساقط المعاني عن جسدي تاركة إياي عارية بشكل كامل، ضعيفة أنا. جسدي ليس قويًّا كفاية ليصمد حتى ربيع آخر، لقد تآكلتُ تمامًا من الداخل، هذا الجسد الضخم ما هو إلا غلاف يخبئ التآكل التدريجي الحاصل بداخله».

تطوي مروة الورقة، ثم تدسُّها في جيبها، لقد قرأتها مرات لا تدري لها عددًا. تتأمل العالم المتحرك من النافذة جوارها وتنزلق شاعرة براحة عميقة على مقعدها الخلفي من السيارة التي استقلتها في عودتها من بيت هبة «أوبر». نعم، ليس عليها بعد الآن أن تمشي مسافات طويلة حتى أقرب محطة للترماي، تدسُّ جسدها وسط السيدات الثمينات، والبنات اللزجات المتعرقات تحت باديهات الكارينا حتى في عزِّ الشتاء، ثم تمضي الطريق واقفة حتى تنزل في أقرب محطة من بيت جدتها، لتعاود السير مسافة أخرى طويلة. يوم أن ضربها فارس، وانتصر لها رضوان فكسر أنفه وذهب به إلى المشفى، وجدت الورقة بحجرته فأخذتها، لم تدرِ لذلك سببًا سوى غضبها الشديد على فارس في ذلك الوقت. مؤخرًا صارت تفكر أن تلك الورقة من حقه، كما أن

المعاش حقها، هي مَن عاشت سنوات عمرها تحمل ذلك البيت مع ألطاف، بينما فارس ومريم يتدللان. مريم طفلة، لكن فارس أخذ كل شيء، عاش حياة يسيرة خاض خلالها كل التجارب، سافر مع أصدقائه رحلات طويلة، جرب المخدرات والعلاقات الجنسية والحب، امتلك أمًّا حقيقية وليس زوجة أب، شعر خلال عمره كله بالاستحقاق، وهي دومًا ما ساورها قلق أنها ليست مستحقة لأمومة ألطاف ولا أموالها ولا بيتها.

وجدت نفسها تردد مع نجاة: «كلك حلو، صوتك حلو، وحتى لما تتعبني وأسهرلك سهرك حلو».

استحضرت فريد، صوته، ملامحه، نظرته الحنون ودفء قبضته الكبيرة حين يتناول كفها. متى يكف عن رؤيتها كابنة له، ويدرك أخيرًا أنها حبيبته؟ ورشته الصغيرة بالمجسمات الخشبية، شغفه الجميل، كل ما فيه جميل. لقد ألحت عليه أن يجرب العودة إلى صناعة المجسمات مرة أخرى، وأن يعلِّمها كيف تصنعها، وعدها بذلك لكنها الآن تترك الكرة في ملعبه لبعض الوقت، تريد أن تشعر برغبته فيها، اشتياقه إليها، ألا تكون هي مَن تخطو نحوه كل مرة. تمنع نفسها جاهدة عن الاتصال به، تقاوم رغبتها في سؤاله عن متى يعاودان زيارة ورشته فيعلِّمها؟ أمسكت بالهاتف، وفتحت تطبيق الواتس أب، فتحت المحادثة بينهما وكادت تراسله، قاومت رغبتها، ضغطت على صورته الشخصية تتأملها. آه، كم تفتقده! أعادت ذهنها إلى ألطاف غصبًا؛ كي تمنع نفسها من مراسلته.

فكرت بضع مرات أن تجرب الاتصال بالرقم في الورقة، لكنها كانت ترجئ الأمر مرة بعد أخرى، ماذا لو عرفت فعلًا مكان ألطاف؟ ألن يكون ذلك تدخلًا منها في حياتها التي قد تكون الآن أفضل بعيدًا عنهم؟ عن رضوان؟ تحب أن تطمئن عليها لتطفئ الشعور بالذنب، لكن ما الضمان أنها لو تواصلت معها وعرفت أخبار تركهم البيت وحال مريم، لن تعود؟

بدا زكي لها ضعيفًا بائسًا للمرة الأولى حين ولجت حجرته بخفة، رأته يبكي واندهشت، بل وكادت تضحك من شكله. وهو حين انتبه لوجودها تمالك نفسه وأشعل سيجارة بكفين مرتجفين. لم تعتَد دخول حجرته، لكن جدتها طلبت منها الاطمئنان عليه إذ أنه لم يترك حجرته منذ الصباح، وقد نادت عليه مرات عدة فلم يستجيب. كانت ناهد قلقة، ثقيلة، وعجزت عن ترك فراشها؛ لأنها مرضت منذ رحلتها بصحبة رامي وروان إلى اللجنة الانتخابية، ثم نزهتهم على شاطئ البحر. كان يومًا جميلًا حتى سقطت الأمطار بكثافة ووجدوا تاكسي يقلهم إلى المنزل بصعوبة. ابتلت ناهد حتى النخاع، وأُصيبَتْ بنزلةٍ معوية حادة ألصقتها بفراشها.

شعر زكي أنه ضئيل، لم تصِبه الحقيبة التي ألقاها فارس في وجهه، ولكنها أصابته في صميم كرامته. كانت فعلًا بصقة فارس التي نازعته نفسه في لفظها على وجهه. لكن أن تراه مروة باكيًا، فتلك طامة أخرى، زعق فيها أن تخرج:

- إزاي تخشي الأوضة كدة من غير استئذان يا بنت العرص، كات وكالة من غير بواب يا روح أمك، غوري في داهية!

تلك النقطة الصغيرة من الشفقة التي ساورتها تجاهه تبخرت تمامًا وأرادت حقًّا أن تسبه، بل أن تضربه. لا، بل أرادت أن تخبره أنه لا شيء، أنه كائن زائد عن الحاجة. شعرت بالضبط كما شعر فارس قبلها، أن زكي ليس إلا ناموسة تلزمها علبة بيروسول، فيصير العالم أفضل بعض الشيء.

15

أن يخلو شباك زكي من رأسه المحاط بدوائر الدخان، فذلك لسكان الشارع كأن يختفي أحد الأهرامات الثلاثة تاركًا مكانه خاليًا. ولناهد كأن تفقد إحدى ذراعيها، اليمنى على وجه التحديد.

خرج زكي من حجرته حاملًا حقيبة صغيرة، اقترب منها مهلًا ثم قبَّل رأسها وأخبرها أن البيت صار ضيقًا خانقًا وأنه سينتقل إلى بيت صديقه لبعض الوقت. صديق؟ لكن زكي ليس لديه أصدقاء!

اعتدلت ناهد في فراشها بصعوبة، وقد ارتسمت على ملامحها إمارات الدهشة والفزع.

- صاحبك مين مش فاهمة حاجة؟ يعنى إيه حتمشي؟

الحق أن ناهد لم تكن تفهم فعلًا ما يقوله زكي، هو لم ينفصل عنها منذ مولده، تزوج في بيتها وأنجب ابنته به، وحين طلق زوجته رحلت هي وروان بينما بقى هو معها.

- صاحبي متعرفهوش، رضوان عندك يحل محلي لحد ما أرجع.

زكي ليس لديه أصدقاء، لقد بحث على الإنترنت ووجد حجرة

للإيجار بسعر معقول، بإمكانه العودة إلى الدروس الخصوصية لو أراد، اسمه كمدرس كيمياء للثانوية العامة لم يُنْسَ بعد.

حين لطمه فارس بالحقيبة على وجهه فأصاب عينه اليمنى، ورأى زكي انعكاسه في المرأة بعين متورمة ذكرته بلوحة رسمتها روان صغيرة، كانت لوجه دون عينين، وكان المطلوب منهم رسم أبيهم وهو يمارس مهنته. هي لم ترسمه مدرسًا بالفصل، كان ما رسمت رأسًا كبيرة بلا عينين، تحتل ثلاثة أرباع الورقة، له جسد ضئيل يجلس أمام طاولة رُصَّ حولها أشخاصٌ متناهين في الصغر. بدا أنها تُصوِّره في مهنة المدرس الخصوصي، لا مهنته كمدرس بالفصل. الحقيقة أنه ما كان ليعير الأمر انتباهًا، لولا أن نجوى وكانت لا تزال زوجته وقتذاك ووضعت اللوحة أمامه قائلة: شوف بنتك شايفاك كدة، من غير عينين»

سخر منها صادقًا، الصغيرة لا تعرف كيف ترسم عينين، هذا كل ما في الأمر. لكن نجوى أصرَّت أنه يتجاهل روان حتى لتشعر أنها غير موجودة، أو أنه لا يمتلك عينين يرى بهما وجودها، وبقى مُصرًّا على أن ابنته لا تعرف كيف ترسم العيون ببساطة. إلا أنه ومنذ اشتهرت ابنته كشاعرة على الإنترنت، أصبح يتابعها دون أن تعرف عن هذا شيء. قرأ كل ما كتبت وشاهد نفسه في عيونها، لا تزال صورته بلا عينين كما هي لم تبارح عقلها. قبل أن يصفعه فارس بالحقيبة، كان قد قرأ نصًا كتبته أخيرًا عن الحب الذي لم تتلقاه من رجل في حياتها، إلى أن قابلت رامي! ليس هذا ما

ألمه، الفتاة في النص قتلت والدها، الفتاة في النص وصفت أباها بـ»الجثة الحية»، وهي قتلته رحمة به وبالعالم. قرأ النص ولم يُظهر تأثرًا قد يلحظه أي شخص يراه، إلى أن جاء فارس فمنحه ألمًا جسديًّا فك أسرَ المشاعر داخله، لتتدفق كسائل أسود ثقيل يتصاعد تدريجيًّا حتى رئتيه فيحجب عنهما الهواء. عندها بكى، كان البكاء هو المنفذ الوحيد لكل ذلك الألم. اقتحمت مروة غرفته خلال لحظة نادرة، حين تمكن أخيرًا من التنفيس عن ضيقه، فاشتعل داخله غضبًا، شعر أنه فقد أهم ما كان يمتلك في حياته، خصوصيته. ومن ثَمَّ أدرك أن عليه الذهاب من هنا.

16

رضوان يمضي بالحمام وقتًا طويلًا، يصدح صوته الأجش وهو يردد الأغاني، أو يصفِّر، ناهد تؤلمها معدتها حين تجوع كما أنها تفقد صبرها تمامًا، ويتصاعد داخلها غضب هادر، تنادي عليه منذ مدة دون استجابة، الأصوات الصادرة من الحمام تثير غيظها وتذكرها بمراهقة رضوان، حين كان ينفرد بالحمام ساعات طويلة دون أن يشغل باله بمَن يحيون معه في البيت ذاته، شجاره المتكرر مع زكي لذلك الأمر نفسه، تشعر برغبة جارفة في أن تطرده بأولاده وتستعيد زكي. كانت لا تكاد تحتاجه حتى تجده أمامها.

خرج رضوان من الحمام، في هيئة جديدة وقد حلق شعره وذقنه، مؤخرًا حصل على تبييض لأسنانه وصار يدعكها بالمعجون يوميًا. حين تناهى إليها صوت باب الحمام نادته مرة أخرى بصبر نافد، فجاء مندهشًا من الحنق البادي في صوتها.

- في إيه مالك؟

تأملت صورته الجديدة وتيقنت أن بالأمر امـرأة. بدا أصغر سنًا، رأته رضوان الشـاب الذي وقـع في حب فـتاة تـفوقه طولًا، وعـلمًا ومالًا. حين رأت ألـطاف للمرة الأولى، شعـرت نـاهد أن ابـنها يودُّ

أن يختصر الطريق لا أكثر. لكن حين ظهر عائق برفض إخوتها له رأته ضائعًا حزينًا بصدق، فشعرت أنه بالفعل يحب ألطاف. وقتها فقط قررت أن تساعده. ها هو يتصابى بعد أن كاد يبلغ الستين من عمره. امتلأت حنقًا تجاه وجوده، كانت قد اعتادت حياتها في سلام بصحبة زكي، اعتادت أن يحمِّمَها ويقصَّ أظافرها ويغسل المرحاض بجوار فراشها، ويُعِد لها الغذاء كل يوم ويحضره في ميعاده، دون حاجة إلى طلب كل ذلك منه. صار كل شيء أوتوماتيكيًّا يسيرًا مع زكي، رضوان لن يستطيع أبدًا أن يحل محله.

- مفيش حد بيقعد في الحمام بالساعات كدة يا رضوان، وصوتك ملعلع كدة ليه؟ هو كان حمام ولا ماخور؟

شعر بالنفور منها ومن تواجده في بيتها مرة أخرى عقب كل تلك السنوات، تذكَّر حين كانت تجثم على صدره كالهم، تنتقد كل تصرفاته، لو قرأ مجلاته بالحمام، لو نام حتى العصر، لو عاد البيت قرب الفجر ليجدها في انتظاره بالموال المحفوظ.

- فيه إيه يا ناهد، فاكراني لسة عيل، ما أقعد في الحمام زي ما أقعد، مالك إنتي؟

- لسه مطبختش!

ساوره ضيق شديد، كان يرغب في الخروج لمقابلة منى قبل أن تبدأ جولتها اليومية، الآن عليه أن يُعِد الطعام لأمه، ثم ينتظر حتى

ينضج فيقدمه لها. لا يطيق صبرًا لتراه منى في هيئته الجديدة.

كانا في المطعم، وقد طلب حساءَ طماطم قبل الطعام، وفي أثناء تناوله تساقط الحساء فبلل ذقنه. قد لا يهمه ذلك لولا أنه رفع رأسه ورأى امتعاضًا على ملامحها، فانتابه الخجل وسحب منديلًا يجفف ذقنه وسمعها تضحك، وحين ظهر ضيق على ملامحه اعتذرت منه، قالت إنها لا تسخر منه معاذ الله لكن في أثناء تجفيف ذقنه أخفاها المنديل، وتخيلت هيئته من دونها، ألا يكون مظهرًا جديدًا رائعًا؟

- وبصراحة يا رضوان شعر دقنك لسة فيه شوربة طماطم، أظن محتاج تغسلها..

لو لم تكن منى، لو لم يكن صوتها وصفاء البحر في عيونها، ما كان برح مكانه أبدًا إلى الحمام، في الداخل تخيَّل رأسَه الصغير بلا ذقن. وتذكر أنه كان يربـيها؛ لأن ألطاف ضحكت مرة من صغر حجم رأسه، فجعل من الذقن طريقة لإطالتها. انقضى عهد ألطاف الآن. عاد لمنى مشرقًا يخبرها أنه أحب فكرة حلق ذقنه، فتمادت وسألته ألا يفكر في حلق شعر رأسه أيضًا؟ حسنًا، الآن عليه أن يحلل الأمر جيدًا، لطالما احتفظ بشعره طويلًا، في أثناء مراهقته أراد أن يجرب شكله، وحين تضايقت ألطاف وطالبته أن يحلق شعره ليبدو إنسانًا طبيعيًا لا ذكر الغوريلا على حد تعبيرها، قرر ألا يحلقه مطلقًا، ومن وقتها وهو يحتفظ به طويلًا

أشعث، كما أنه أيضًا يضيف على رأسه الصغير حجمًا! آه ليته يترك المنزل الآن فيقابل منى.

- ابقي خلي مروة تطبخ قبل ما تنزل بعد كدة، ولا تطبخ بالليل لما ترجع..

قالها بنفاد صبر شعرت معه ناهد أنها ثقيلة عليه، ما كان زكي ليشعرها بذلك أبدًا، ردت عليه بملامح ممتعضة أورثته خجلًا من نفسه. رد عليها:

- زكي كان فاضي يا أمي، أنا شغال! ومروة عندك شغليها.

- وهي فين مروة؟ حد بيشوفها؟

- مش فاهم! محدش بيشوفها ليه إن شاء الله؟

- أهِه بتتصرمح برا طول اليوم وترجع على النوم، ما هي لوكاندة أبوكو كلكو. أنت وفارس نفس الكلام، والبت مريم مطلوقة في الشارع على طول، هي البت دي بتستحمى أصلًا؟ بقت شبه الشحاتين في الإشارات!

- مروة طول اليوم برا وأنت ساكتة؟ سايباها دايرة على حل شعرها؟ دي ألطاف اللي مكنتش أمها كانت ممشياها على عجين! وأنت جدتها لزم!

- لأ، مانا مش الدادة بتاعتك أنت وعيالك يا رضوان، أنا ست كبيرة ومعدش فيا حيل، آه!

أغضبه حقًا ما عرفه عن مروة، لكنها كانت أيضًا فرصة يسيرة لإسقاط خجله. ترك ناهد إلى المطبخ نافد الصبر، سحب كيس الكبدة وأفرغه بالحلة ثم ملأها ماءً، ووضعها على البوتاجاز. أفكاره مشتتة، لا يكاد يستقر على فكرة حتى تضايقه، ويقفز عقله إلى غيرها. مرر أصابعه على ذقنه فوجد هواءً، تذكر هيئته الجديدة، ترك المطبخ إلى حجرته ووقف يتأمل انعكاسه معجبًا. كيف ستشعر ألطاف لو رأته اليوم؟ فغر فاهه يتأمل بياض أسنانه، واندهش أن يفكر في ألطاف، ثم تذكر مروة فسحب هاتفه واتصل بها فصبَّ جام غضبه عليها مباشرة وبلا أي تمهيد، طالبها أن تترك ما تفعل وترجع إلى البيت حالًا. حين صعدت مريم لتناول الغذاء رأى ما تتحدث عنه ناهد، كانت الصغيرة متسخة الثياب، شعثاء، وقد سوَّدَ ترابُ الشارع وجهَها. أمرها أن تغير ملابسها وتغتسل. حين رجعت من الحمام كان شعرها لازال هائشًا، وأظافرها طويلة سوداء، ولا تكف عن حك شعرها. شعر بالامتعاض وزعق فيها أن لا تبارح البيت إلى الشارع مطلقًا، فكفت الصغيرة عن الطعام وبارحت المطبخ إلى حجرة المعيشة باكية. نهرته ناهد أن كان عليه أن ينتظر حتى تنتهي الطفلة من طعامها على الأقل! أراد أن يخرج لكنه أراد أيضًا أن ينتظر عودة مروة، جلس على كرسي زكي الخشبي، أطلَّ رأسه من النافذة، ولم يكف عن التدخين.

17

في طريقها إلى المنزل، التقطت مروة صورة للورقة التي تركتها ألطاف بكاميرا هاتفها. شعرت برغبة جارفة في رد الورقة إلى فارس. الحقيقة أنه رغم ذهولها من غضب رضوان عليها في المكالمة الهاتفية، إلا أن مشاعرها بالحزن لم تكن موجهة نحوه، لقد سيطر عليها شعورٌ هائل بالذنب، تجاه مريم، رضوان، ناهد، ألطاف وحتى فارس. فردت الورقة التي كانت مدعوكه في جيبها تتأملها، لقد طرح عنها رضوان غطاء المبررات التي أقنعت بها نفسها وهي تستغل نقود المعاش لأجل صالحها فقط، تركها عارية تمامًا أمام روحها. لا يعني هذا أن تعترف لهم بحيازة الكارت، ولا أن تتخلى عن حياتها الجديدة، لكن من الممكن أن تعتني بمريم مثلًا. لا ضير لو أعدت الطعام كل صباح قبل ترك المنزل إلى الجامعة، وتدسُّ الورقة لفارس في غرفته. بعد أن رتبت أفكارها وأخمدت شعور الذنب، انتابها فزعٌ شديد، ماذا لو جعل رضوان من ناهد رقابة جديدة عليها فتمنعها من قضاء اليوم ببيت هبة، ومقابلة فريد في ورشته؟!

شعرت بالهلع للحظات، ثم استدركت سريعًا، الأمر بسيط، ستمنح ناهد جدولًا بمواعيد زائفة، لا أحد الآن يمكن أن يأتي إلى الجامعة بنفسه ليحصل على الجدول كما كانت تفعل ألطاف

سابقًا. آه، ألطاف! ماذا لو اتصل فارس بالرقم في الورقة وعرف مكان ألطاف فأعادها إليهم؟ وليكن، ربما كان من الأفضل أن تعود ألطاف فتعتني بمريم ويعودون إلى بيتهم فلا يشغلها إعداد الطعام لناهد، ويبتعدون عن ذلك البيت القذر بروائحه الكريهة. غياب ألطاف حتى لو كان مؤقتَا فقد منحها فرصة، بالطبع لو عادت لن تخبرهم عن حيازتها لكارت البنك، فليظنوا أنه سُرِق! آه ولكن هل بإمكانهم تتبع حامل الكارت؟ لو عادت ألطاف تلقي به في أي شارع؟ هل توجد كاميرات بماكينات الصرف الآلي؟ هل تسامحها ألطاف؟ هل لو عرفت سرها ستفشيه؟ آه، الأمر معقد، وعودة ألطاف قد تفسد عليها حياتها. ماذا لو لم يتقدم فريد لخطبتها؟ لو عادت ألطاف وعرفت جدولها الحقيقي وفرضت عليها رقابة صارمة قبل أن تنجح خطتها مع فريد! فارس حقير، ليس عليها تجاهه أي واجبات. لتعتني بمريم، تطبخ لناهد، تصالح رضوان، لكنها لن تعيد الورقة لفارس، ليس هذا آمنًا!

حين بلغت رأس الشارع، رأت فارس في منتصف شارعهم يمشي متثاقلًا، يرفع قدمه ويغمس أخرى في طبقات الطين، صار أكثر نحولًا حتى شعرت أن بإمكانها رؤية عظام عموده الفقري من خلال قميصه. كان يتقدم متمايلًا كعود قمح، لا يمنع عنه السقوط والاستسلام للريح، سوى جذوره المغروسة بالأرض. ثم لمحت زكي مطلًّا برأسه من الشباك كالعادة، فساورتها دهشة، ثم ضيق، ثم سعادة غريبة بعودته. حين ارتقت الطِّوار الضيق وخطت عليه مهلًا، تبينت أن تلك ليست رأس زكي بل هو رأس

رضوان وقد صار يشبه أخاه! حلق شعره وذقنه، صار زكي برأس أصغر مطل من نفس الشباك، حوله نفس هالات الدخان! بدا أن فارس لم ينتبه لرضوان، تبادلا هي ورضوان نظرات مرتبكة صامتة، وتابعت فارس وهو يلج من باب العمارة ثم تبعته.

حين ولجت حجرة المعيشة ساورها شعور بالخوف، هل انكشفت؟ إنها لسابقة أن يجتمعوا في منزل ناهد خلال النهار.

حجرة المعيشة في منزل ناهد مربع صغير، بأحد أضلاعه يوجد الباب المفضي إلى حجرة نومها، وبضلع آخر باب الشقة، ضلع به شباك بعرض الحائط أسفله أريكة والضلع المتبقى به كرسيان، في منتصف الحجرة طاولة كبيرة، مريم فوق الأريكة مستندة على ركبتيها، ورأسها خارج الشباك، جوارها على نفس الأريكة جلس رضوان، وقد ترك حجرة زكي إلى حجرة المعيشة بعد أن شاهد قدوم مروة وفارس. بدا فارس متحفزًا، أشعل سيجارة وهو يراقبها بابتسامة ساخرة، حتى مريم لفت رأسها على أثر دخولها البيت. كل تلك العيون تحاصر جسدها، كان وضعًا مربكًا غريبًا، الصمت يلف المكان. وهي تركت الغرفة إلى حجرة ناهد تلقي عليها التحية، فردتها بتحية باردة، أو هكذا شعرت والخوف يكاد يتمكن منها. ودت لو تخرج من المنزل فتترك لساقيها العنان، تهرول وتلقي بنفسها في صدر فريد، أن ضُمَّني، تزوجني.

تماسكت، وهي تحاول ألا تُظهر ما يساورها من فزع، وجلست على الكرسي المجاور لفارس رغمًا عنها. بإمكانها أن

تذهب إلى المطبخ لتسخن الغذاء الذي أعده رضوان مثلًا، أن تلج حجرة رضوان فتغير ملابسها. لكن الصمت المهيمن على المكان إضافة إلى نظرات رضوان النارية، أجبروها أن تنضم إليهم. شعرت برغبة ملحة في التدخين، فارس ورضوان ينفخان دخان سجائرهما لتمتلئ به الغرفة. كانت هي وهبة تدخنان سرًّا بالجامعة، وبغرفة هبة جوار النافذة، مؤخرًا صارت تدخن كثيرًا بسبب تواجدها المستمر بصحبة هبة، حتى عندما تلتقيان بعمر في أحد المطاعم، كانتا تشاركانه التدخين.

لِمَ لا تشارك رضوان وفارس التدخين الآن؟! شعر رضوان برغبة جارفة في إطالة الصمت. حين صب جام غضبه على مروة في الهاتف، ساوره هدوء حالم مختلط بصورة منى، لقد هاتفته منذ بعض الوقت وسكب صوتها بأذنيه بحرًا رائقًا، لا يرغب في تعكير هدوئه. لم يتوقع عودة فارس الآن، لكن حين رآه عائدًا وجدها فرصة عظيمة لإسناد بعض المهام إليه أيضًا، فهو لو تزوج من منى لن يبقى معهم، وعليه أن يُسقِط عنه كل المهام المتعلقة بناهد. ربما تُعِد مروة الطعام، وتتولى تحميم ناهد، فارس ينظف البيت، وكل ما يتعلق بمريم على مروة أيضًا أن تتولاه. فليكن إذن اجتماعًا عائليًّا حتى لو حصل محض صدفة. حين دخل فارس البيت، ولج غرفة زكي وأخبر رضوان أنه سينام، لكن رضوان طلب منه أن ينتظر قليلًا؛ لأن الأسرة صارت في حالة من الفوضى وعليهم تنسيق الأمور بينهم. كما أن مروة بحاجة إلى رقابة بديلة عن ألطاف. حين شاهد فارسُ رضوانَ في هيئته الجديدة لم تطل

دهشته، لقد رأى بنفسه كيف يتفحص رضوان منى كلما جاءت لناهد، وكيف يراقبها من الشباك حتى تختفي من الشارع، ما كان ليرى من ذلك كله إلا سلوك رضوان المعتاد تجاه الجنس الآخر، لولا أن زاهر أخبره أنه شاهد فتاة جميلة تجلس خلف والده على المكنة وينطلقان على شاطئ البحر، وحين وصفها زاهر عرف فارس أنها منى. ساوره تصميم أشد في استعادة ألطاف ليقطع على رضوان مغامرته الجديدة، ثم لطمه يقينٌ جديد: ألا يكون رضوان قد قتل ألطاف، ثم خبأ جثتها؟ ألا تكون مروة شريكته في الجريمة؟ لقد صارت حياتهما أفضل عقب اختفاء ألطاف، مروة الآن منطلقة بلا رقيب ولا حسيب. يسره أن رضوان قرر فرض رقابة جديدة عليها، تساوره فرحة ساخرة من مروة وشماتة بها، لذا جلس في الصالة تعلو ملامحه ابتسامة ساخرة، وهو يتوقى أن تنقلب الأمور على رأسها فيبارح رضوان صفها ويتخلى عنها. حتى لو كانت فعلًا شريكته في جريمة قتل ألطاف، فهو بالتأكيد استوثق من عجزها أن تشي به، ترك لها مساحة للحرية إلى أن أمَّن نفسه، والآن يسحب البساط من أسفل قدميها.

جلسوا يتبادلون النظرات في صمت لا تقطعه إلا مريم وهي تحك شعر رأسها بلا انقطاع. برحت مروة مكانها واقتربت تفحص شعر مريم ثم ساور ملامحها امتعاض شديد، كانت فروة رأسها ممتلئة قملًا.

الفصل الثالث

1

ثلاثة أشهر على اختفاء ألطاف

الجوع يتجسد داخل أميرة إلى كائن طفيلي، يتغذى على جدار معدتها، يورثها ألمًا والألم يصير غضبًا، تصبه على تلك النادلة المتعجرفة التي انتصبت أمام طاولتها، معها دفترها الصغير والقلم، ترمقها من أعلى بينما تملي عليها أميرة ما ترغب في تناوله، فإذ بها تخبرها أن المشويات هنا لا تُقدم بمقدار يقل عن العشرة كيلو! أنفها الرفيع الحاد يكاد يلتقي بالثريا الكلاسيكية الضخمة التي تتوسط سقف المطعم الفاخر، أرادت أن تقتلع أنفها من جذوره، وكزَّت على أسنانها وهي تأمرها بسرعة تلبية طلبها، كيلو إلا ربع فقط لا غير، الآن وفي تلك اللحظة. لكن النادلة أقرب للروبوت منها للبشر وهي تعيد عليها أن قواعد المطعم لا تسمح بتقديم ما يقل عن العشرة كيلو! روائح الطعام تتسلل من الموائد حولها، تعبر أنفها نافذة إلى كائن الجوع بمعدتها، تغذيه فيتضخم داخلها، وقد نفد صبرها وقررت أن تلك النادلة لن تبقى في عملها ساعة أخرى! صرخت تستدعي مدير المطعم، علا صوتها ليضايق زبائنهم من ذوات البذات الكلاسيكية وفساتين السهرة الباهظة. جاء المدير مبهوتًا وأراد أن تتبعه إلى مكتبه الشخصي ليتحدثا بهدوء، أراد أن يبعد صوتها الحاد المزعج عن

زبائنه البرجوازيين، وهي رفضت؛ لو أراد أن تهدأ عليه أن يفصل تلك النادلة ذات الأنف المتعجرف والسنتين الأرنبيتين، الآن توًّا. وحين فصلها لم يهدأ كائن الجوع داخلها، لقد صار وحشًا وقد فرض سيطرته على جسدها بالكامل، صممت ألا ترحل تلك النادلة إلا بعد خلع سنتيها الأماميتين كضمان لها أنهم لم يفصلوها زيفًا لتهدأ، وأنها لن تتمكن من العمل نادلةً بمكان آخر، أبدًا، مطلقًا. حين خلعوا سنتيها نام الوحش داخلها رغم كونها لم تطعمه بعد، لم تعد تشعر بالجوع، لكنها وجدت طعمًا صدِئًا كالدم على طرف لسانها، وشعرت بفراغ مكان سنتيها الأماميتين. حين رأتها خارج المطعم، كان أنفها محنيًّا وقد دسَّت قطعة قماش بيضاء ملوثة بالدماء داخل فمها، كانت تتألم دون بكاء، جاءت ألطاف فأجلستها على كرسي بلاستيكي أمام أحد المتاجر، ضمتها طويلًا وبكت، ثم ألقت على أميرة نظرة جامدة، بعدها فقدت سنتيها الأماميتين وتدفقت الدماء سوداء خارج فمها.

كانت ليلة واحدة قضتها ألطاف في بيت أميرة قبل أن ترحل عنها مرة أخرى، من قبل أصابتها ألطاف بصدمة كانت شديدة الوقع عليها، حين قررت - بعد سنوات طويلة من الصداقة التي بدأت بينهما كطفلتين تعيشان في نفس الشارع، ثم تلتحقان بالمدرسة نفسها - أن تقطع علاقتها بها، كانتا مراهقتين، وكانت أميرة شديدة التعلق بألطاف، تحبها حبًّا جمًّا وتجعلها بديلًا عن

أخواتها الذين لا تحبهم، كان السبب تافهًا من وجهة نظر أميرة، كما أن الأمر كله لم يكن متعمدًا! اندلقت عليها الكوكاكولا، نادوا اسمها، بينما كانت في الحمام تنظف قميصها، حاولت أميرة أن تقنع المشرفة بانتظارها لكنها رفضت وأدخلوا أميرة مكانها. عقب دورها، حاولت مرة أخرى مع المشرفة لكنهم أصرُّوا أن مَن تخطاه الدور يضعوه في نهاية اللائحة، تلك اللائحة التي لم ينهوها بسبب ضيق الوقت، كلها مصادفات متتالية مؤسفة. وهي كانت تعلم أن ألطاف تحب بكر، لكنه حب طفوليّ ساذج، لا يتطلب رد فعل بهذه –القسوة الشديدة. حين اتصلت بها ألطاف هاتفيًا، لم تكن دهشتها أنها أسقطتها من ذاكرتها، وقد افترقتا منذ ما يزيد عن الأربعين عامًا! لكن أن تتذكرها ألطاف، أن تتواصل معها هي وتطلب مساعدتها دونًا عن العالمين. الحق أن الجرح الذي تركته ألطاف بها لم تبرأ منه مطلقًا، لقد قضت عامًا دراسيًّا كاملًا بلا أصدقاء، بينما ألطاف تعقد صداقات هنا وهناك، تراها وتتجاهلها كأنها هواء، تحاول أميرة الاعتذار منها فتصدها بقسوة. أصيبت أميرة ذلك العام باكتئاب جعل التحصيل والدراسة بمثابة صخرة سيزيف! رسبت بالامتحانات وانتقلت دفعتها جميعًا إلى الجامعة، بينما هي تعيد عامًا آخر ثقيلًا بلا أصدقاء.

شعرت دومًا أنه لو تصادف وقابلت ألطاف ستبصق على وجهها غضبًا أسود كثيفًا، ستخبرها عما فعلته قسوتها بقلب مراهقة كانت بعد تنفتح على الحياة مُودِّعة أعوام طفولتها، لكنها ما أن سمعت صوتها، ما أن عرفتها واستدعت صورتها، حتى غفر

قلبها الذنوب جميعًا واستدعى سنوات المدرسة الحلوة.

أرادت أن تعرف لو كانت ألطاف عادت لأسرتها؛ لذا اتصلت بمروة، وكان رقمها الأخير على قائمة هاتفها. حين فهمت أنهم يبحثون عنها، خافت التواصل مع أسرتها، أصلًا هي ليست مفيدة لهم، فهي أيضًا لا تعلم أين ذهبت ألطاف.

عاودت صديقتها الكرة، جاءتها لاجئة، باكية، ضعيفة وقد صارت أضعاف حجمها، وحين فتحت لها أميرة قلبها قبل بيتها، لكمتها بقسوة في ذات الجرح القديم.

كانت أميرة في فراشها لا تزال، ليست نائمة ولا مستيقظة تمامًا، تستعيد تفاصيل حلمها وتتعجب من قسوتها خلاله، حين رن هاتفها برقم مجهول، وكان فارس.

- فارس مين؟

- أنتي أميرة؟

- أيوة أنت مين، تعرفني؟

- أنتي تعرفي أمي؟ ألطاف محمد فاروق؟

اعتدلت في فراشها وقد لطمتها نفحة مُربكة من المشاعر والأفكار، تتذكر الحلم، تشعر بالغضب على نفسها قبل كل شيء، الحق أن تلك المرة هي مَن دفعت بألطاف للرحيل عنها، كانت غبية، متسرعة ولم تمنحها فرصة لاستكشاف ميول جديدة

بداخلها. لو انتظرت ليلة، ليلتان، لو تركتها تمكث بصحبتها زمنًا، لربما حصل الأمر بشكل طبيعي لا يخيفها إلى هذا الحد.

- أعرفها.. مالها؟

اشتعل فارس حماسًا وهو يستجمع كل قوته؛ ليصرف اضطرابه ويتمكن من تنظيم جملًا مفهومة.

- ماما عندك؟ جاتلك؟ جاتلك ليه؟ مشت إمتى؟ تعرفي راحت فين؟ موبايلها عندك صح؟ أنتي كلمتي مروة مش كدة؟

أغلقت أميرة الخط ثم أغلقت هاتفها المحمول، تُرَى أين تمكث ألطاف منذ ثلاثة أشهر لم تتمكن من مبارحة فراشها، شعرت بنفسها ثقيلة، أفكارها مضطربة، لو توصل أبناء ألطاف لرقم هاتفها لن يتركوها لحالها، ربما تخبرهم أن ألطاف قضت ليلة عندها ورحلت لا تدري عنها شيئًا وتنتهي من تلك القصة؟ بالطبع سيودون القدوم لأجل هاتف ألطاف، قد لا يصدقون أن أمهم ليست عندها. وإن جاءوا وفتشوا الشقة، لربما يعتقدون أن ألطاف بالخارج مختبئة وتعود للبيت بعد رحيلهم. قد يتطور الأمر فيسألون الجيران، عندها تصير فضائح جديدة، تخشى أن يطردوها من البناية تلك المرة، هل تغير رقمها إذن؟ رأسها بين كفيها غارقة في حيرتها، انتفض جسدها كله على وقع جرس الباب، سارت إلى الباب يرتعد جسدها كله، وكان الطارق محصل الكهرباء فهدأت نفسها.

2

استيقظت ناهد والجوع يعتصر معدتها، وحين التقطت هاتفها واكتشفت أن الساعة الآن الرابعة عصرًا فهمت لما هي جائعة إلى هذا الحد، لكنها لم تفهم لِمَ نامت حتى الرابعة عصرًا؟ اقتحمت هانم غرفتها، وقالت لها إنها سترسب هذا العام أيضًا، فالامتحانات بقى عليها شهر واحد، وهي لم تذهب إلى المدرسة من بداية العام. انتابها توتر شديد، وفكرت أن تزور المدرسة غدًا وتحاول إيجاد مدرسين يساعدونها على الإلمام بالمناهج قبيل الامتحانات. اجتذبتها رائحة الكبدة إلى المطبخ، ورأت أمها في جلباب المنزل وقد ربطت منديلًا على شعرها، وشمرَّت كميها حتى آخرهما. بالحوض كانت تقطع خروفًا صغيرًا، بينما أجزاؤه متناثرة في أنحاء المطبخ. سألتها عن الكبدة، فقالت أمها إنها على وشك النضوج. حين خرجت إلى الصالة رأت باب الشقة مفتوحًا فأغلقته، زعقت أمها عليها بأن تفتح الباب؛ لأن جثث الأرانب لم تجف بعد، لم تكن قد لاحظت الأرانب المتراصة بأرضية الصالة، وقد سقط عليها شعاع شمس من شباك السلم، قررت أن تتصل بصديقتها سهير لتسألها عن مدرسين قد يمدون لها يد العون فتعبر هذا العام دون سقوط. رائحة الكبدة النافذة من المطبخ تشتت أفكارها، تركت الهاتف، وفي المطبخ رأت النار وقد أمسكت في الحلة وارتفعت حتى سقفه.

استيقظت ناهد فزعة على رائحة شيء يحترق، فزعقت تنادي على مروة ومريم بلا أي استجابة، سحبت عصاها من جانب الفراش واتكأت عليها، ثم تحركت متثاقلة نحو المطبخ، فوجدت أن الماء جف بالحلة واللحم احترق بالكامل، أطفأت نار البوتاجاز واشتعلت نارٌ أخرى داخلها، سارت تتكئ على عصاها بسرعة نسبة إلى حجمها وصحتها المتدهورة. من شباك غرفة زكي، رأت مروة على رأس الشارع تتحرك في دوائر وهي تتحدث عبر هاتفها، بينما مريم في وسط الشارع تصنع كرات من الطين وتتبادل قذفها مع الأطفال. صرخت من الشباك، صراخًا هيستيريًا أخرج رؤوس الجيران من نوافذهم. جاءت مريم خائفة، فزعقت عليها أن تأتي بمروة وتصعدا إلى البيت حالًا.

هرولت مريم تخوض طين الشارع. وحين رأتها مروة تذكرت اللحم وهي تخبط على جبهتها فزعة، أغلقت الخط مع هبة التي كانت تبكي وتشتكي عبر الهاتف، ووعدتها بمحاولة التنصل من جدتها لساعة بعد المحاضرة تتحدثان فيها. عادت مهرولة دون أن تهتم بكونها تخوض طين الشارع بحذائها وسروالها النظيفان. رأت ناهدَ هيستيرية تمامًا، تصرخ على اللحم المحروق، وأن مروة تبغي قتلها نائمة بحريق البيت، لذا سمحت لمريم بنزول الشارع كما خرجت هي، إنها خطة مُحكمة منها لأجل قتلها. فزعت مروة من ظنون ناهد بها، نعم بإمكانها أن تتضايق لأن اللحم احترق، أن توبخها بشدة؛ لأنها اندمجت في المكالمة الهاتفية مما جعلها

تسهو عن اللحم، فكادت تتسبب في كارثة. لكن أن تتهمها باتهام كهذا؟ كيف ولماذا؟ هل جُنَّت ناهد؟

في البداية حاولت مروة أن تعتذر وتهدِّئها، وتخبرها كاذبةً أن صديقتها أصيبت في حادث، ولذلك كانت على الهاتف تطمئن عليها فلم تنتبه إلى الوقت ونست اللحم على النار. لكن حين تمادت ناهد في اتهاماتها، وحين أتت على ذكر أمها الخادمة، فقدت مروة هدوءها إلى غضب هادر، وبادلتها صراخًا بصراخ، هل تنسى ناهد أنها أيضًا كانت خادمة؟

شعرت ناهد أن ما بداخل أحشائها الآن زيتًا مغليًا يكويها على مهل، أرادت أن تتمرد على جسدها العاجز فتعلم مروة الأدب بذراعيها. لقد صارت ناهد خادمة؛ لأن أباها وأمها ماتا محترقيْن في بيتهما. تجربة لم تبارح وعيها أبدًا. كانت هي أول من بلغ الشارع لتجد تجمهرًا حول بنايتها، وحين عبرت الجموع كان أول ما التقطت أنفها رائحة اللحم البشري المحترق، رائحة لم تدرك كنهها في تلك اللحظات، لكنها خلقت بداخلها فجوة سوداء لم تتبين معناها حتى شاهدت رجالًا يخرجون من باب العمارة حاملين جثة ملفوفة بشرشف أبيض. انزاح الشرشف عن قدم أبيها وشاهدت جلدًا أسود مهترئًا عن بقع حمراء متناثرة. حين صرخت بهستيريا لاحظها الجيران، فحملوها وابتعدوا بها عن البناية.

كانت الصدمة أولًا، ثم جاء الجوع ثانيًا. الجيران والأقارب وكل

مَن اعتنى بها وأخواتها في بداية الفاجعة تخلوا عنهم بعد مرور شهر واحد. لم يكن لديها أسرة مقتدرة، كل أقاربها يحيون على الكفاف. حين خرجت تنظف البيوت، كانت تراقب حياة الأغنياء، ويقرص معدتها الجوعُ خلال يوم التنظيف، بينما روائح المطبخ تنهال عليها، فتشعر برغبة جارفة في إشعال حريق بعد أن تجمع من تلك البيوت كل ما تقدر عليه من ثروات. في ما بعد، علَّمتها هنية عن السرقات الصغيرة غير الظاهرة، علَّمتها أن تتبول في ماء تنظيف الأرضيات حتى لا يستطيع أصحاب تلك البيوت الاستغناء عنها.

انتقلت هيستيريا ناهد إلى مروة، مر شهرٌ لم تستطع خلاله أن تقابل فريد، أن تذهب معه إلى ورشته، رغم أنه أخيرًا تواصل معها وطلب منها تحديد موعد ليعلِّمها كيفية صنع المجسمات الخشبية. وهي لا تنفك تنظف البيت وتطبخ، تنظف شعر مريم من الحشرات، ثم تجد الحشرات تعاوده رغم منعها من نزول الشارع. الأسوأ أن مريم نقلت إليها حشرات الشعر فاضطرت إلى قص شعرها لتتمكن من معالجته. شهرًا كئيبًا أمضته بين المحاضرات والمطبخ وتنظيف مرحاض جدتها المجاور لفراشها، وهي متقززة تكاد تتقيأ، فضلًا عن تحميم جدتها نفسها، ورؤية جسدها العجوز المتقشف، المكوَّن من طبقات لحم فوق طبقات أخرى عاريًا. جسد العجوز ومرحاضها وحدهما كانا كفيلان بحرمانها من النوم ليالي كاملة. تخشى الشيخوخة كما تخشى الموت، بل أشد. لقد بلغ بها الكدر أن دسَّت ورقة ألطاف

بسروال فارس، عَلَّه يتمكن من الوصول إليها فتستريح هي من كابوس ناهد، والاعتناء بمريم. خرجت منها في تلك اللحظة جميع مشاعرها التي كبتتها خلال الشهر الماضي دفقة واحدة، منحتها ناهد الفرصة لتبصقها عليها. رفعت ناهد عصاها وأرادت فعلًا لطم مروة بها، لكن ثقل جسدها أعجزها عن ملاحقتها. ولم يهدآ إلا بعد أن فتحت مريم باب الشقة للجيران الذين تجمعوا على أثر صراخهم، فدخلوا يفصلون بينهما ويهدئون كل منهما على حدة.

3

لم يخرج فريد من البيت الليلة كعادته، خرج من حجرته مرتديًا منامته، رأته هبة وغالت في تجسيد الحزن والغضب على ملامحها. كانت متكئة على الأريكة، إلى جانبها كتاب دراسي لا تعيره اهتمامًا، التلفاز أمامها مغلق وهاتفها ليس بين أصابعها، تعمدت تركه حين أحست به خارجًا من الحجرة. وهو بدا تائهًا، ولج المطبخ وعاد بكوب ماء وضعه على السفرة وجلس قبالته دون أن يشرب منه، تفحص هاتفه لبعض الوقت، ثم حمل كوب الماء ودخل به إلى حجرة النوم حيث كانت فيروز نائمة، إلى جوارها كوب ممتلئ بالماء فوضع الكوب الآخر جانبه. خرج من الحجرة وولج المطبخ ثم خرج مباشرة يسأل هبة لو تريد كوبًا من الشاي، فهزت رأسها سلبًا والغضب لا يزال ظاهرًا عليها. عاود دخول المطبخ وخرج بعد قليل بكوب شاي وضعه على السفرة وجلس قبالته يتأمل الدخان المتصاعد منه. أخذ يختلس النظر إلى هبة، يود أن يسألها لِمَ لَمْ تَعُد مروة تزورهم بالبيت؟ والسؤال لن تستغربه هبة مطلقًا، لكنه شعر أن طرحه للسؤال سيبدو غريبًا؛ لأنه اكتشف داخله مشاعرًا تجاهها، لقد وجد في نفسه فقدًا كأنه عطشان بشكل دائم، والماء لا يرويه. وهبة لا تعرف عن داخله شيئًا. ومن المستحيل أن تشك حتى في أمر

كهذا، لذا فلو طرح السؤال لن يسترعي انتباهها مطلقًا. إلا أنه لم يجد في نفسه الشجاعة على طرح السؤال، كان غارقًا في التفكير عن كيفية جعله تلقائيًا. مثلًا هل يسألها عن الجامعة أولًا، عن الامتحانات ربما؟! إلا أن هبة غارقة في أحزانها، حانقة عليه؛ لأنه منعها من مقابلة عمر إلى أن يتخرَّج ثم يأتي إليهم فيخطبها. تود أن يرى غضبها فيغير رأيه ويسمح لها بأن تلتقيه في الجامعة، أو بصحبة خالد على الأقل. تريد لملامحها أن تتكلم، دون أن ينطق لسانها. وهو لم يلحظ غضبها هذا أبدًا، فكل ما كان يشغله هو التوصل لخطة تجعل من سؤاله عن مروة تلقائيًا.

- اتعشيتي؟
- لأ!
- طب تتعشي معايا؟
- لأ!
- ليه؟ مش جعانة؟
- لأ!

استرعى انتباهه امتناعها عن خوض حوار معه، انتبه الآن فقط للغضب البادي على ملامحها، فقام من مجلسه على كرسي السفرة وجاء يجاورها على الأريكة، يريد أن يحيل علاقته بها إلى صداقة. لقد عانى طوال الشهر المنصرم من اشتياق مزعج تجاه مروة، يلح عليه بلا انقطاع، شعور يربكه ويخيفه، يجعله مشتتًا

طوال الوقت، عاجزًا عن فهم ما يمر به لو قرر أن يتزوجها.. لكن لحظة، هل فعلًا يفكر في أمر كهذا؟! كان بالفعل يشعر برغبة في مقابلتها والتيقن مما يساوره تجاهها. وكلمة الزواج جديدة على عقله، مفاجئة ومربكة. ربما استطلع اجتذاب هبة إلى صفه إن تعاطفت مع مشاعره تجاه مروة، هل هذا معقول؟ إنه يهذي! يا الله، لقد طلبت منه فيروز منذ زمن أن يتزوج وهو رفض الفكرة. تُرَى كيف سيشعر خالد وأحمد لو تزوج؟ لكن أن يتزوج عمومًا قصة، وأن يتزوج مروة تلك قصة أخرى. وهبة كانت تراقبه وقد ملَّت رسم الغضب على ملامحها، تريد أن تراجع هاتفها، الرسائل تتوالى عليه من عمر. لماذا جاء جوارها كأنه سيتكلم، ثم لبث صامتًا؟!

- لو زهقانة تعالي ننزل نتعشى برا، إيه رأيك؟ أحمد جوا حياخد باله من ماما، وخالد كمان زمانه راجع.

- مش عاوزة!

ثم خطرت لها فكرة، لِمَ لا تطلب منه أن ينضم عمر إليهما في هذا العشاء ليتعرف عليه؟ يحبه مثلما تحبه هي ويتعلم ألا يحرمها من لقائه، آه، كم هي متوهمة حالمة!

- مالك؟ أنت متوترة علشان امتحاناتك قربت؟

وسنحت له الفرصة الآن:

- ليه؟ مروة مش بتساعدك في المذاكرة زي زمان؟

وانتظر الإجابة بصبر فارغ؛ مجرد نطق اسمها بصوت عال يتسرب إلى أذنيه بنفحة صافية كأول نفس من أول سيجارة في اليوم. وهي تضايقت لأن الفرصة أفلتت من بين أصابعها، وصار الكلام عن الجامعة والمذاكرة.

- مروة عندها مشاكل، جدتها مغلسة عليها ومانعاها تروح أي مكان إلا الجامعة.

هي أيضًا تفتقد صديقتها كما تفتقد حبيبها، صار البيت كئيبًا سخيفًا منذ أن كفت مروة عن القدوم، كانت على الأقل تجد أذنًا تسمعها، تدخنان معًا. وحتى المذاكرة بصحبتها تكون أيسر. في تلك اللحظة انتابه قلق شديد نحو مروة، شعر أنها تعاني الآن، حبيسة المنزل بصحبة أبيها وأخيها القاسِيَين، وجدتها العجوز. لماذا لا يصحب هبة للعشاء في الخارج وتنضم مروة إليهما؟ من الممكن مثلًا أن يتواصل مع أبيها فيقنعه أن الفتاة تحتاج للمذاكرة؛ لأن الامتحانات اقتربت. راجع هاتفه، واكتشف أن الساعة اقتربت من التاسعة. تأخر الوقت، وليس من اللائق أن يطلب من أب خروج ابنته للعشاء في وقت كهذا. جاءه إشعارٌ برسالة، وكانت منها، فقام مبتعدًا عن الأريكة يتفقد الرسالة، وهبة سحبت هاتفها أخيرًا لتقرأ رسائل عمر.

4

لم يدرِ فارس لِمَ جاءت أسرته لتحضر مراسم الدفن، أصابه هذا بتوتر بالغ، إذ أن رضوان لا ينفك يعلّق على كل شيء. أسرة زاهر تأخرت، ومروة نافدة الصبر تتساءل ساخرة عن كنه الأهل الذين يتأخرون عن دفن ابنهم. حين قرر الاتصال بهم، شاهدهم على مد البصر قادمين، لا يبدو عليهم من علامات الحزن سوى ملابسهم السوداء. بدوا متعجلين يودون الانتهاء من الأمر، لمَّا بلغوهم تصاعدت رائحةٌ نتنة من النعش. ومريم لم تصمت، بل سألت: لِمَ تبدو رائحة زاهر كريهة؟ ومروة قالت إن عليه غضب من الله، فشعر فارس بحرج شديد من أسرة زاهر. كما شعر بالضيق من رائحة صديقه النتنة. زغر لمروة كي تصمت. والعمال فتحوا الحفرة كأسرع ما يكون، تقدم أبو زاهر وأمه، يمدون للعمال يد العون، كانا يرغبان في إخفاء الجثة وإهالة التراب عليها فتتلاشى رائحته المنفرة. وقد رأى فارس جثة صديقه داخل النعش، عظمًا مهشمًا بلا لحم، وقد رصت على التوالي الرأس لتجاور الذراعان، أسفلهما الساقان بينما القفص الصدري والحوض مختبئان أسفل بقية العظام. تصاعدت سحابة هائلة من التراب على أثر انضمام أسرته إلى والدي زاهر والعمال في الحفر. وزاهر أخبره أن تلك فرصة سانحة كي يلتقط جثته ويفران من هنا. لكن الرائحة

النتنة حجبت عنه القدرة على تهريب صديقه، فقرر الرحيل قبل أن يُنْزِلوا جثته داخل القبر.

من أين تأتي تلك الأحلام؟ ما الذي يصنعها! هل لها أي معنى! بقى جامدًا في فراشه يحلق في سقف حجرة زكي، هل كل تلك البقع السوداء هي آثار دخان سجائره! أم أن تلك بقع عفن، بالضبط كالتي يشعر بها تتكون على جدران صدره! حين أجبر جسده أخيرًا على ترك فراشه، وارتدى سرواله ثم دسَّ يده في جيبه بحثًا عن بعض النقود المتبقية ربما، وجد أصابعه تلمس ورقةً مطوية، استخرجها وفردها، فإذ بها الورقة التي تركتها ألطاف.

ساورته دهشةٌ مختلطة بالحماس وعدم الفهم؛ لقد فتش كل جيوبه بدقة، أين كانت تلك الورقة وكيف جاءت إلى هنا؟ وتصاعد داخله الشك تجاه مروة. لا أحد غيرها؛ لقد سرقت الورقة من حجرته ثم قررت ردها. لكن لِمَ قررت ردها؟ أرجأ عقله التفكير في مروة الآن، يسعده أن حياتها عادت إلى وتيرتها الأولى، بل أسوأ. ربما لهذا ردت له الورقة، ترغب الآن في استعادة ألطاف. لكن لكن كيف وهي شريكة في قتلها مع رضوان. لا، ربما لم تَمُتْ. بالتأكيد لم تَمُتْ، وإلا ما كانت مروة دسَّت له الورقة بسرواله. ربما استطاعا إبعادها بطريقة أو أخرى، هل أودعاها مستشفى المجانين مثلًا ليتخلصا منها؟ خرج من البيت متعجلًا، لا يرغب في أي شيء سوى الاتصال برقم أميرة تلك. وحين أغلقت الخط

ثم هاتفها كاد يُجَن من الغضب، إلا أنه أيضًا انتابه يقين مريح بأن ألطاف حيَّة، تلك السيدة لِمَ تتهرب منه لو كان الأمر طبيعيًّا، لِمَ أغلقت هاتفها؟ وصديقه عبده خبير في أمور التكنولوجيا، سيسأله عن كيفية تتبع هاتف مغلق. شغوفًا بالخيط الجديد، شعر أيضًا بحاجةٍ ماسة إلى شيء من الاسترخاء الليلة، والنقود بحوزته دون أن يسرقها. ليست تلك بسرقة، لو لم يجد القرط الذهبي الذي سقط من أذن مريم لكان قد ضاع. وهو أخبرها أن تخلع القرط الآخر كي لا يضيع أيضًا، ثم باعهما، واندهش صدقًا أن قطعة صغيرة من الذهب تساوي مبلغ كهذا. فكر في حلي ألطاف الذهبية، وتيقن أن ألطاف لم تبِعها، لقد كانت تعشق كل قطعة من حليها، وكانت فخورة باقتنائها. قطع ورثتها عن أمها، وأخرى ورثتها أمها عن جدتها. بالطبع سرقها رضوان بالاتفاق مع مروة بعد أن قتلاها، أو لا، لم يقتلاها، لا تزال حيَّة. وسيجيء بها، فينتقمان من مروة ورضوان. الليلة يجتمعون عند زاهر، على عبده أن يتتبع الهاتف المغلق. غدًا يزور تلك السيدة في بيتها، وهي ستدله على مكان ألطاف، لو كانت قد قبضت نقودًا من رضوان ليُسكتها، سيرغمها فارس على الكلام. سيصطحب معه زاهر، ويخيفان السيدة حتى تتكلم.

أراد عبده أن يدخنوا الحشيش أولًا ثم يتتبع الهاتف، أخبره أن الحشيش يجعله أكثر انتباهًا وأَحَدَّ ذكاءً. لكن فارس رفض رفضًا قاطعًا، فتح اللاب توب ووضعه أمامه، اعثر لي على مكان ذلك الهاتف الآن وقبل كل شيء، زاهر سيُعِد الحشيش بينما تجده،

لكن عليك أن تجده، وتتبُّع هاتف مغلق ليس أمرًا معقدًا. لديه رقمان: رقم أميرة الذي أغلقته، وقد جرب بالفعل معاودة الاتصال بها مرات عدة خلال اليوم بلا طائل. وهنالك أيضًا رقم ألطاف نفسه! وعبده كان يراوغ، وزاهر يقنع فارس أنه لا ضير من تتبعه الرقم وهم يدخنون الحشيش، وأن عبده بالفعل يصير منتبهًا وهو منتشي. أخذ فارس إصبع الحشيش ودسه بجيبه، وأخبرهما أنه سيأخذه ويرحل-

عرف زاهر أن فارس شديد التوتر، قليل الصبر، لا يرغب في شيء سوى بلوغ مكان أمه، وحاول تهدئته. وعبده شعر بالغضب أيضًا، هو يفعل ذلك لأجل الصداقة، ليست مهمة يتلقى عليها أجرًا ليتحمل غضب فارس وأوامره! هَـمَّ بالرحيل، وزاهر لا يزال يحاول إعادة السلام بينهما حتى ملَّ وشارف على اليأس. وفجأة خطرت لفارس فكرةٌ تعجَّب كيف لم تخطر له قبلًا، التقط هاتف زاهر وجرب الاتصال برقم أميرة، فرن، حينها أدرك ما فعلته؛ لقد حجبت رقم فارس، ذلك كل ما في الأمر. لكنه ارتبك مغلقًا الخط؛ لأنه خاف إن سمعت صوته لربما ترفض الكلام معه، ثم تحجب رقم زاهر أيضًا. وكلما سيكلمها من رقم ستحجبه، ثم قد تغير رقمها أو تلقي بالشريحة فيفقد الخيط. زايل عبده الغضب، وقد التقطت نفسه حماسَ فارس تجاه اكتشافه الجديد. كما شعر فارس بهدوء ورغبة جارفة في الانتشاء. قرر ثلاثتهم أن ينعشوا جلستهم بدبوس واحد كبداية بعدها يعاودون التفكير في الأمور. الحق أن عبده لم يكن واثقًا من قدرته على تتبع هاتف مغلق إلى

عنوان ما، وقد كان متوترًا من فشل تجربته في وجود شهود عيان منتبهين، ربما لو كانا منتشيين، مسترخيين، يكون الأمر أيسرَ بلا مخاوف الإخفاق.

عقب أول دبوس، قرر عبده أن يجرب تتبع هاتف السيدة المفتوح ثم هاتف ألطاف المغلق، وكان فارس منتشيًا وقد انتابته طمأنينةٌ لا يدري لها مصدرًا. شعر أن أمه قريبة، بل شديدة القرب منه، وأنه على وشك العثور عليها. وبما إن هاتف السيدة ليس مغلقًا بل ومتصلًا بالإنترنت كما اتضح، تمكن عبده من تحديد العنوان بسهولة، اتضح أنه في العجمي، منطقة البيطاش. ساور فارس حماسٌ بالغ وهو يخبرهما أن عنوان تلك السيدة هو البناية المجاورة لبيت عائلة أمه القديم، أميرة تلك جارتها إذن، الأمر منطقي. قرر فارس أنه سيذهب الليلة، وكان ثلاثتهم منتشين. اعترض زاهر اعتراضًا هينًا ذهب أدراج الريح في مقابل تصميم فارس وحماس عبده لمغامرة يكتشف من خلالها هل نجح فعلًا في تتبع موقع الهاتف بدقة. طمأنهما فارس أن بإمكانهم - لو تأخروا - المبيت في بيت جده، فهو يحمل مفتاحه.

5

خلال رحلة منى على المركب البحرية بدا العالم هادئًا لطيفًا، ومحببًا إلى قلبها. كانت شغوفة بألوان العالم، غابات خضراء تعلوها ورود حمراء، والمحيط غارق في زرقة عميقة، تعلوه سماءٌ لبنية منقوشة عليها السحابات البيضاء. ثم تتلون السماء بألوان الشمس الغاربة، وتتوقف المركب لاستراحة قصيرة. أعلنوا عليهم أن بالجزيرة بيت مخصوص حيث يمكنهم ممارسة الجنس لمدة نصف ساعة بالضبط لا تنقص ولا تزيد، وليس من حقهم اختيار شريك لممارسة الجنس معه، سيُدخلونهم حجرة يجدون فيها الطرف الآخر، على مَن يرغب في تسجيل اسمه أن يتقدم الآن. وجدت أن البنات على المركب تخطيْنَ الأمر ربما خجلًا، والشباب جميعهم سجلوا أسماءهم، فسجلت اسمها أيضًا. وفي الغرفة وجدت بنتًا، فاندهشت. كانت الغرفة بسيطة ولكنها نظيفة، مضاءة بألوان الغروب، النافذة من شباك بعرض حائطين خلف الفراش وجواره، يتوسطها فراش كبير عليه شراشف بيضاء ناصعة، وأمام الفراش مرآة بعرض الحائط مثبت في منتصفها بار بنيّ بنفس العرض. أمامه جلست البنت، وكانت جميلة، شعرها أسود طويل وملامحها طفولية رقيقة. كانت تحتسي كأسًا من الشمبانيا وعرضت على منى كأسًا فرفضت. أخبرتها البنت ألَّا

ترتبك، لو كانت لا تميل إلى ممارسة الجنس مع فتاة، فبإمكانهما أن تتحدثا. لكن عليها أن تنتبه أن الوقت المحدد لها لن يتخطى نصف الساعة، بعدها تتحرك المركب. أرادت منى حقًا ممارسة الجنس، مع رجل بالطبع، لكن لِمَ لا تجربه مع تلك البنت الجميلة؟ الحق أنه كان لدهشتها ممتعًا، لدرجة أن المركب تحركت بالفعل وهي علقت بالجزيرة.

حين استيقظت، كانت تفاصيل ممارستها الجنس مع الفتاة غائبة تمامًا. الحقيقة أنه لم يكن حلمًا إيروتيكيًّا، لكنها استغربت تفاصيله وانغلق عليها فهمه.

منى لا تزال عذراء، رغم تخطيها الأربعين ببضعة أعوام. فشلت كل محاولات أمها لتزويجها، كما فشلت هي أيضًا في التقاط حبيب لنفسها. وأن يعيرها رضوان اهتمامًا، أن يغير مظهره من أجلها، صار جذابًا؛ لأنها تتعطش إلى الحب بحق. والأدهى من ذلك أن جسدها يتعطش إلى الجنس. دعاها إلى بيته مرات عدة، فكانت تصرُّ على رفض دعوته بلطف رغم رغبتها الجارفة في تلبيتها. لكن لتضمنه زوجًا عليها أن تصبر. الليلة لا بُد أن تفهم منه التعقيدات الخاصة بزوجته المفقودة، ماذا لو عادت؟ هي لن تكون زوجة ثانية أبدًا، لذا ستسأله صراحة/ هل لايزال يحب زوجته ويرغب في عودتها؟

- لأ طبعًا يا حبيبتي!

كانا يتناولان عشاءهما في كازينو الشاطبي على البحر. أضواء المدينة تتلألأ في الأفق كنجوم ملونة من خلال جدرانه الزجاجية. وإن غابت زرقة البحر مع حضور الليل، فالزرقة بعينيها لا تغيب. بالتأكيد يود أن يتزوجها، لكنه يخشى التفاصيل، فهي عذراء لم يسبق لها الزواج، وبالتأكيد سترغب هي وأهلها في فرح، وفستان باهظ وزفة. يفضل أن يحتفظ بالنقود التي حصل عليها من بيع حلي ألطاف الذهبية دون مساس، فهي تُدِرُّ عليه ربحًا معقولًا، وبالإضافة إلى راتبه يمكنهما عيش حياة كريمة. لو تمكَّن من مضاجعتها ففض غشاء بكارتها قبل الزواج لأمكنه إقناعها بدخلة بسيطة، حيث يتناولان عشاءهما بصحبة أسرتها الصغيرة ثم يتوجهان إلى بيتهما. لربما يسافران بضعة أيام إلى إحدى مدن البحر الأحمر. بالطبع كان يأمل ألا تظهر ألطاف مطلقًا، لقد كانت تقدِّس حليها الذهبية أكثر من الله ذاته. وكلما مرت بهما ضائقة مالية، وحاول إقناعها ببيع إحدى القطع لحل الأزمة، كانت ترفض رفضًا حازمًا، بل كانت توفر النقود ثم تبتاع المزيد من الحلي. لكم هو ممتن الآن لاكتنازها كل تلك الحلي، تركت له ثروة محترمة قبل أن تغيب، ربما لن يضايقها أمر بيعها. لطالما كانت ألطاف طيبة القلب، لعلها كانت تحتفظ بهم لأجل سعادته، الحق أنها بالفعل منحت رضوان السعادة لسنوات طويلة.

- ليه متطلقهاش طيب؟

ضحك رضوان، وخرجت نفخة ساخرة من أنفه دون قصد، بَانَ

أثرها على ملامحها فاستدرك:

- أنا مطلقها يا منى، ألطاف مش مراتي!

- بجد؟

- أيوة ودي فيها هزار؟ ما تيجي نروح نقعد في نفرتيتي حبة بعد العشا؟

تنفست منى الصعداء، أرسلت عينيها إلى أضواء المدينة الممتدة خلف رأسه، وشعرت أن العالم واسع وجميل، انتابتها نشوة متصاعدة حتى لأرادت أن تختبر شعور القبلة كيف يكون، وهي لم تشرب خمرًا من قبل. كانت على وشك بلوغ الخامسة والأربعين، ولم ترَ من العالم سوى مؤخرات العجائز، وطين الطرق، وجدران بيت أمها المتقشرة. لم تتنسم إلا رائحة الشيخوخة العالقة بجدران كل البيوت التي تتردد عليها، تلك الرائحة الزاحفة رويدًا لتلتصق بجسدها أيضًا. هي لم تختبر الحياة بعد، ورضوان يفتح لها أبواب تبدو عن حق مغرية، يمنحها الحب الذي لطالما حرمت منه.

- نروح ماشي!

لو عرف من قبل أن كون ألطاف لا تزال زوجته هو ما كان يعيق منى عن ترك العنان لنفسها، لكان أخبرها منذ زمن. فكلما سألها أن يشربا معًا، أو يدخنا الحشيش في منزله، كانت ترفض، ودهش لسرعة استجابتها اليوم دون أن يضطر إلى إلقاء الخطبة

التي كان قد أعدها لإقناعها، وساوره حماس جعله يتناول عشاءه في عُجَالة.

6

في رسالتها له عبر الواتساب، أخبرت مروة فريد أنها ترغب في لقائه الآن، وكانت تلك مفاجأة لم يتوقعها. أخبرها أن تستعد وسيمر؛ ليصحبها في سيارته ليتناولا عشاءهما في الخارج ويطمئن عليها. كان حقًا قلقًا طوال الفترة الماضية، والليلة تصاعد قلقه لكأنه شعر بألمها. حين خرج من حجرته وقد ارتدى ملابسه، شعرت هبة بالغضب. لقد سألت عمر لو يحب الانضمام لها هي وأبـيها لتناول العشاء في الخارج وأبدى ترحيبًا. لكم يفتقدها ويحب أن يراها ولو بصحبة أبيها! انتظرت أن يسألها فريد مرة أخرى، ولكنه تجاهلها واستعد للنزول دونها.

- بابا استنى حاجي معاك..

آه، لِمَ الآن؟ لن يستطيع اصطحابها فهو يرغب في الالتقاء بمروة وحدهما، أن يطلق لنفسه العنان ويستوثق ما إن كان يشفق عليها ويحبها كأب، أم أن بالأمر مشاعر أخرى. تواجُد هبة معهما سيجعل منه أبًا. وهي قالت إنها ترغب في الحديث معه، بالطبع لا تتوقع أن يأتي بصحبة صديقتها.

- مش قولتي عندك مذاكرة!

- مقلتش كدة، قلت مليش مزاج!

- وإيه اللي اتغير؟

- مزاجي، مخنوقة.. بابا بص!

وأرادت أن تستجدي أُبُوَّته، أن يشفق عليها، أو لا، هو بالتأكيد نسى منذ سنوات طويلة ماهية الحب والفقد. سيخبرها أن تصبر وتركز على مذاكرتها كي تنجح وينجح عمر. والأمر كله عدة أشهر. بالطبع لن يتفهم فزوجته في بيته منذ عشرين عامًا، وقد نسى كيف يكون الاشتياق. تخبره أن عمر يود أن يُحدِّثه في أمر هام للغاية ومُلِح. فليكن على عمر أن يخترع قصةً ما.

- أصل عمر عاوز يقابلك.

- مش قلنا لما يتخرَّج؟

- لأ، عاوزك في حاجة مهمة!

- خليه يكلمني نحدد معاد!

وهو لا يريد أن يتأخر على مروة، فليس لديهما الكثير من الوقت. كان يفتقد النظر إلى وجهها، سماع صوتها، طريقتها في الهزار، واسمه كما تنطق به.

- يا بابا، حتعشى معاك برا وهو يقابلنا!

- لأ خلاص اتفقت مع عصام نتقابل، أنتِ قولتي وراكي مذاكرة.

- والله ما قلت كدة، اعتذر لعصام، أنا كنت متضايقة ولسه متضايقة، محتاجة أغير جو، محتاجاك يا بابا، من فضلك..

- بكرة.

- يا بابا لو سمحت...

وكادت تبكي، بالفعل انتابتها رغبة جارفة في البكاء. شعرت أن البيت سجن، بقاؤها فيه الآن سوف يقتلها. تود أن تتنفس عمر، أن تسمع صوته وتنظر في عينه فتطمئن. وهو شعر بالذنب حقًا، ها هو يتجاهل ابنته لأجل نزوة طارئة، هل مروة نزوة؟ الأدهى أنها صديقتها. تصاعدت مشاعر الذنب داخله، وراسل مروة كأنه يعتذر من صديقه. أخبرها أن تطلب من هبة أن تلتقيا فيستطيع أن يصحبها معها. ومروة التي انتابها ضيق مؤقت من طلبه، إذ أنه أشعرها أن فريد لا يزال ينظر لها كأب، استجابت لأن الابتعاد عن جحيم ناهد الآن عقب الهيستريا السابقة لهو رحمة، حتى لو كان لا يصب في مصلحة خطتها. كانت تفتقد هبة، ومن الجيد أن تراها أيضًا. وحين توالت رسائلها على هاتف هبة، شعرت الأخيرة بالفرحة، أن تلتقي مروة وعمر في ليلة واحدة فتلك جائزة لم تتوقعها، وجود مروة سيخفف من غرابة تواجُد أبيها معها هي وعمر. وحين أخبرته مترددة لو يوافق على اصطحاب مروة معهما، لم يرغب في إظهار حماسته؛ كي لا ينتابها شك فيه، وأخبرها أنه ربما لن يكون لائقًا؛ لأن موضوع عمر قد يكون خاصًا فيضايقه تواجد مروة.

- لأ، سألته ومعندوش مشكلة.

- خلاص اللي تحبوه!

وفي الطريق شعر بنفسه رجلًا عجوزًا يصحب كل أولئك الشباب إلى عشاء بالخارج، أبًا لهم جميعًا، وكدَّره ذلك الشعور.

7

تجاور ثلاثتهم على الأريكة الأخيرة بالميكروباص المتوجه إلى البيطاش بالعجمي. زاهر كان متوترًا قلقًا حتى كادت تزايله نشوة الحشيش، أجلس فارس جوار النافذة وتوسطهما ليتمكن من السيطرة على سلوك فارس تجنبًا لمشكلات قد تؤدي إلى القبض عليهم. انهمر المطر بغزارة فارتفع الماء على الطريق، وصار المشروع باخرة تخترق محيطًا غارقًا في الظلمة. على البر الآخر، حين تنقضي العاصفة ويحطُّون الرحال، سيعثر على أمه تنتظره وحيدة وقد أشعلت في ملابسها النار كي تتدفأ، وهو فارسها جاء يعيدها إلى الوطن، دفء منزلهم النظيف بعيدًا عن قذر ناهد ورضوان ومروة. ستخبره أن رضوان تعاون مع مروة على قتلها، إلا إنها نجت من أجله هو ومريم؛ لذا عليهما شنق القتلة، بل حرقهم أحياء. وجاور الباخرة حوت ضخم انسلخ عن سوداء الليل وفتح فاهه يلتهمهم. انتفض فارس، ولكنه تدارك خوفه ولملمه في جوفه. يستطيع أن يقفز من الطائرة الآن ويتركها لظلام الليل. أسفل الليل في الأرض نهارًا يراه من هنا، عليه فقط أن يعبر الخط الفاصل بين الليل والنهار. سيتلقفه البحر هادئًا حنونًا كصدر أمه. وحين فتح شباكه وهم بالقفز، منعه زاهر، فأعاد غلق الشباك. وحين كاد فارس يلطمه، دلق على وجهه من

زجاجة ماء جاء بها خصيصًا. صدمته برودة الماء، ولكنه عاد إلى الواقع وشاهد الناس حوله جلوسًا في الميكروباص فانتابه حرجٌ يفوق الغضب. لا يزال المطر منهمرًا والناس جوارهم وأمامهم، زَعَقوا حين فتح فارس الشباك فأدخل المطر إلى السيارة. وهمهم السائق غاضبًا. كان الحوت رغم كل شيء لا يزال يجاورهم، وفارس أراد أن يخرج عن دوامات الدخان ليتمكن من إحضار أمه. لبث هادئًا يتأمل الحوت بلا انفعالٍ بادٍّ، وزاهر لا يكف عن الكلام معه، كان مزعجًا كمذيع عجوز على الراديو لا يجد ما يملأ به الوقت. صوته ينخر طبلة أذنه ويمنع عنه السلام. وضع كفه على فم زاهر ليصمت، وهمس في أذنه أنه متيقظ تمامًا، ولولا ذلك الحوت الذي يجاورهم، لشعر أن أثر الحشيش زايله. وأبعد زاهر كفه ليخبره أن حوته ما هو إلا عربة ضخمة، وهو لن يصمت لأن السائق والركاب مرتابين بالفعل، ولو أنزلوهم عند أي لجنة لن تكون فقط نهاية رحلتهم، وإنما نهاية مستقبلهم. أقسم له فارس أنه مستيقظ، بل إنه يشم ريح أمه. التقط عبده جملته فضحك منه متسائلًا ما إذا كان ارتد بصيرًا؟

لم يلتقط فارس سخرية عبده. لقد شعر وهو يراقب العالم يغتسل أمام ناظريه، أنه بالفعل ارتد بصيرًا، وسأل الحوت عن يونس لما دعا ربه للخروج من سلام معدته إلى صخب العالم، ثم ساورته هواجسه فلم يعد يفهم سببًا لوجوده من الأساس، لِمَ خلق الله البشر؟ وتلك السيارة تخوض بهم الزمن نحو مجهولٍ غارق في ضبابيته. هل يعثر على جثة أمه، أم يجدها تتنفس؟

وأميرة تلك؛ من هي ولِمَ تخشى الكلام معه؟ هل هي شريكتهما في الجريمة، أما تُرَاها من نفذتها، وقد تقاضت من رضوان أجرًا إحدى حلي ألطاف الذهبية. أخذ يراقب الأسفلت تأكله إطارات السيارة ثم تلفظه خلفها. كان الزمن يمر، ولو صارت ألطاف جثة فلن يجد من جسدها الآن إلا عظامًا. أوليس غريبًا أن وجودي وجودك وجوده وجود الناس أجمعين دليلٌ فج على ممارسة الجنس، ثم تجد الناس يأنفون الكلام عنه كأنه عار؟! وكان يشير إلى ركاب المشروع بأصابعه، ويخبرهم أنهم هنا لأن أبويهم مارسا الجنس. والناس في البداية استغفروا بأصوات عالية، فضحك منهم ضحكات عالية محشرجة، وشخر في وجوههم يؤكد لهم أنه لولا ممارسة الجنس لما كان لديهم فم يستغفرون به. لم يُسكِت فارس سبابُ سائق الميكروباص، والناس غضبوا غضبًا عظيمًا وتضامنوا وأصروا أن يُنزله السائق هنا في عرض الطريق. والسائق تنحى جانبًا وترجل يطالبهم ليس فقط بالنزول، لكن بأجرته، وهم في مواجهة الرجال الذين تأذت زوجاتهم وبناتهم من فجاجة فارس، لم يجدوا سبيلًا إلا النزول. وعلى الطريق أخبر عبده السائقَ أنه إن لم يوصلهم فلن يدفعوا أجرة، وزاهر آزره والسائق شمَّر عن أكمامه واستعد لضربهم. وكان رجلًا أربعينيًا طويلًا عريض الجسد، حاد الملامح. ناول عبده لكمة أسالت الدماء من فمه، وفارس ارتجف جسده تحت وقع المطر والدماء، وزايلته كل شجاعة شعر بها خلال الساعات الماضية، وعاوده الخوف شبحًا يتلبس جسده، فأخرج من جيبه

نقودًا منحها للسائق بأصابع مرتجفة، نقودًا تفوق أجرته مرتين، أخذها السائق وتحرك الميكروباص مبتعدًا تاركًا ثلاثتهم أشباحًا تقف في ظلمة الطريق، أسفل انهمار المطر، والتقط عبده سنته المكسورة يتفحصها بين أصابعه.

* * *

داخل بار نفرتيتي انقلب مزاج منى المنفتح على العالم إلى قلق بالغ، لم تَعْتَد التواجد بمكان كهذا، أحست بضيق ناتج عن الإضاءة الخافتة والموسيقى الصاخبة للمكان. لم تشرب قبلًا، ولا تحب ألا تكون واعية يقظة في وجود كل أولئك الأغراب. كان الساقي قد فتح لها بالفعل زجاجة روم بالخوخ طلبها رضوان، وشعرت بالنفور من رائحتها، خشيت أن تضايق رضوان لو رفضت تذوقها، لكن حاجزًا منيعًا كصخرة ضخمة داخلها منعها من أن تقربها، ورضوان لاحظ امتعاضها، فصارحته بمخاوفها.

أخبرها رضوان في محاولة لإقناعها أن تجرب ولو رشفة واحدة:

- ما كلهم سكرانين؟

- ثم استطرد:

- ثم ما حدش بيسكر من بُق يا عبيطة، ولا حتى من إزازة، اشربي حبة وفُكي!

أن يطــلق عليها «عــبيطة» فــتلك خطـوة أبعد في علاقتـهما تـؤكد

على بلوغ شط من الراحة المتبادلة بينهما، أن قلق البدايات على وشك أن يزايلهما إلى ألفة تشد من أوتار المحبة وتنميها. لكنها صممت على الرفض، وهو اقترح عليها أن يشربا في بيته إذن، هناك لا يوجد أغراب تقلق منهم، وإن أحبت يمكنه أن يعرِّفها على الحشيش أيضًا. وهي حتى اللحظة لم تكن قد قابلته في مكان يمكنه من لمسها، تقبيلها، أو ممارسة أي نوع من الحميمية بينهما. وأرادت بشدة رغم توترها أن تستجيب لطلبه. لو استطاعت أن تجرَّ منه وعدًا صادقًا، أن تخبره بصراحة أنها تود الاحتفاظ بعذريتها حتى يتزوجا، والكلام على طرف لسانها يأبى الخروج، بينما ينتظر هو أن تلبي دعوته، فلا يرى منها إلا صمتًا يُكدِّره.

طلبت منه أن يخرجا لشيء من التجوال، إذ أنها تشعر أن المكان هنا خانق، وأن أنفها لم يَعْتَد على رائحة الكحوليات، الرائحة تضايقها، فتجرع ما بقى من زجاجته، وظلت زجاجتها التي طلبها لها كما هي مفتوحة دون أن تُمَس. تركها كارهًا وطلب من النادل الحساب، ثم خرجا.

لا يزال المطر ينهمر، وهما يسيران أسفل المباني يتجنبان أن يبتلا لكن الجو استغرقها وأعاد فتح آفاق مترامية بصدرها، أرادت أن تلبي دعوته ولكن ليس قبل أن تُمْلِي عليه شرطها أولًا. سار يتأمل عينيها شغوفًا بهما. لم تُسْكره الخمر، لكنها أكسبته انتعاشًا مبهجًا تضافر معه المطر ليسري بجسده كله، التصق بها بينما يتمشيان، ومد ذراعه يلفه حول خصرها فلم تعترض

تبادلا نظرة حالمة، وأخبرها أن بإمكانها مصارحته بكل ما تبغي. واستصعبت الكلام، فسارا صامتين.

* * *

كان كل منهم يخبئ ارتباكه خلف لائحة الطعام، هكذا استهلوا جلستهم، مرتبكين يتبادلون نظرات غريبة، وعبارات غير مكتملة. دخلوا إمبريال بملابس مبتلة واحتواهم دفئه، وما أن جاء النادل بقوائم الطعام حتى شعروا براحة. أما هبة ومروة تقاربتا بمقعديهما ورفعتا قائمتيهما يتهامسان خلفهما. ابتسم عمر محرجًا لفريد، ثم رد عينه سريعًا إلى قائمة الطعام يفكر في الموضوع العاجل الذي عليه اختراعه الآن! يخشى أن يسترق النظر نحو هبة في وجود أبيها، وفريد لا يعنيه مطلقًا موضوع عمر العاجل، بل أنه نسى الأمر كله، ولم تَعُد أذنه تلتقط سوى نبرات صوت مروة، كان يخشى أيضًا أن يسترق نظرات نحوها، فلا يجد كلاهما مخرجًا سوى تبادل تلك النظرات غير المريحة. هبة أَشْعرها وجود مروة بالراحة ،واكتشفتا كم كانتا تفتقدان بعضهما البعض.

بعد أن أخبرتا فريد بطلبيهما ليمليه على النادل، استأذنتا للحمام، وهنالك دخنتا سجارتيهما منتشيتيْن بلقاء طال انتظاره. سألتها مروة عن كيفية إقناع والدها بانضمام عمر، فحكت لها، وضحكتا من ارتباك عمر الواضح وهو يبحث عن

موضوع ليتناقش مع فريد حوله. لطالما كان عمر فاشلًا في اختراع حوارات، وهبة تضحك عليه من قلب يعشق حتى ارتباكه وسذاجته. أما مروة فعقلها يهدر كماكينة مصنع، لمَ لا تجعل من نفسها مفتاحًا لسعادة هبة؟ مفتاح يسعدهما معًا. فما لا تدركه هبة بينما تلاحظه مروة بوضوح، أن فريد كان أشد ارتباكًا من عمر نفسه، وأنه صدقًا لا يأبه لموضوعه الهام، شاهدت اليوم في عينيه اشتياقه لها فانتفض قلبها سعادة. لو تخبر صديقتها الحميمة أيضًا بقصة حبها دون أن تفقد صداقتها، لو تخبرها أن بيدها إقناع فريد بخِطْبتها - منذ الآن - على عمر، في مقابل أن ترضى هي بحبه لها دون أحكام. لكنها لاتزال غير واثقة من ردة فعل هبة. استصعبت الكلام ومالت إلى الصمت، بينما تقص عليها هبة شغوفة بلقائهما الذي طال انتظاره، كل ما عانته خلال الشهر الماضي.

* * *

كان الظلام حالكًا، والسيارات تتخطاهم كأنهم هواء، ثلاثة مخلوقات تجسَّدت من ظلال، ابتلوا حتى النخاع. هاجمت فارس نوبةُ بكاء حرمت صديقيه من إفراغ غضبهما به، كما لم يحاولا احتواء مخاوفه وتهدئته. كل ما كان يشغلهما هو الخروج من ذلك المأزق، وبما أنه هو من أقحمهما به فعليه دفع ثمن الخروج. رأى عبده أن الحل المثالي الآن هو سيارة أوبر يدفع أجرتها

فارس، فلم يعارض. لكنه حين التقط رغبتهما في العودة إلى الإسكندرية، طرد بكاءه وقام مرتجفًا يخبرهما، بصوت مبحوح يجاهد للخروج من حنجرته، أنهم بدأوا طريقًا ولا بُد من بلوغ نهايته. كما أنهم الآن أقرب للعجمي منهم للإسكندرية. كانا لا يزالان يرفضان بقوة، حتى أقنعهما أن بوسعهم قضاء الليل في شقة أهل أمه.

حين انقضى الطريق أخيرًا، والذي أطاله المطر المنهمر بلا توقف مما جعل المياه ترتفع على الطرق فتعرقل الرؤية وتبطئ المسير، شعر عبده وزاهر بالغباء لتورطهما في مشوار كهذا لا يعنيهما منه شيئًا، وقد تخطى الوقت منتصف الليل، فليس منطقيًّا أن يطرقا أبواب الناس في تلك الساعة، وملابسهما غارقة في البلل حتى جواربهم، يشعران بالبرد والجوع الشديد، لا يرغبان الآن في شيء إلا بيوتهم الدافئة، ووجبة طعام ساخنة. أما فارس فلا يزال على حماسه، لم تكن خطته أن يزور السيدة في وقت متأخر، إلا أن الأمر من رأيه جاء لصالحه؛ لن تتوقع تلك السيدة زيارته في مثل ذلك الوقت، وبالتالي ستعجز عن إخفاء ألطاف نفسها، أو جثتها. شعر عبده وزاهر أنه يهلوس، مَن يحتفظ بجثة في بيته، ناهيك أن يُبقي عليها لشهرين؟ لكنه كان متيقظًا تمامًا ومستعدًا لكل الاحتمالات. حتى لو انتهت الرحلة بحصوله على هاتف أمه فذلك سيكون مكسبًا. من خلال هاتفها سيتمكن من معرفة خطتها قبل اختفائها، مع مَن كانت تتواصل، أمور عديدة بالتأكيد ستتكشف له من خلال ذلك الهاتف. عاود عبده شيء من

الحماس، كان يرغب في التأكد ممَّا إذا كان استطاع بالفعل تحديد موقع الهاتف.

كانت شوارع العجمي شبه خالية. وقد أغلقت كلَ المتاجر والطرقات بركٌ من الطين والماء. بلغوا البناية بسهولة؛ لأن فارس كان هنا الشهر الماضي حين عثر على المفتاح، وهي البناية التي تجاورها. الآن تظهر مشكلةُ تحديد شقة السيدة، ما كانت لتكون عائقًا لو جاءوا بالنهار، حيث يكون بالشارع أناس يسألونهم. أصرَّ فارس ألا ينتظروا حتى الصباح، وعبده راودته فكرة: البناية قصيرة من خمسة أدوار، وهم لم يجربوا الاتصال برقم السيدة من هاتفه، فلم لا يوزعون أنفسهم على أدوار البناية، يتصلون بالهاتف، وكل منهم يسترق السمع ملصقًا أذنه بالأبواب حتى يبلغه صوت رنين الهاتف، خاصة أن الدنيا هادئة والناس نيام.

* * *

عقب انقطاع المطر، انقشعت السحب كاشفة عن قمر غير مكتمل أضاء السماء مبددًا ظلمتها لتبدو أرحب. كان هواء ما بعد المطر صافيًا ينعش القلوب. الشوارع والأشجار والمباني اغتسلت، وتلألأت عليها قطراتُ الماء. بدت ليلة تتفتح خلالها الأرواح ويرتفع التوق وتعلو الآمال بقلوب المحبين في وصال قريب.

حاولت ناهد الاتصال برضوان مرات عدة لتخبره عمَّا فعلته بها مروة، حيث كادت تقتلها حرقًا في فراشها، وانتهى بها الأمر لترك البيت في وقت متأخر من الليل. إلا أن رضوان كان يحرص على غلق هاتفه حين يكون في صحبة منى.

خطرت لمروة فكرة في أثناء تواجدها في الحمام تنصت لحكايات هبة، فكرة لا تجعل هبة تتشكك بها وتمنحها فرصة للانفراد بفريد، إذ أخبرتها أن بإمكانها أن تخبر فريد برغبتها في التحدث معه حول أمر خاص بها وبأسرتها، أمر تخجل من حكيه في حضور عمر.

- متخافيش حاعرف ألاقي حكاية، أنا مش خيبة زي صاحبك، وبكدة تعرفي تقعدي مع عمر لوحدكوا شوية.

وضمتها هبة شديدًا، كادت تبكي من فرط سعادتها بشهامة صديقتها، أن تضحي هكذا تضحية، فتضطر إلى صحبة أبيها حتى تمنحها تلك الفرصة. وسألتها مرات عدة إن كان لن يضايقها ذلك. حركت مروة كفها في الهواء دلالة على عدم الاهتمام، الأمر بسيط وهي بالفعل تتضور جوعًا، ستمضي ذلك الوقت في تناول عشائها. وحين أخبرت مروة فريدًا، ساوره حماسٌ أخفاه. منذ بداية الليلة وهو يخشى التطلع إليها، يشعر أن مظهرها الجديد يجذبه إلى تفحصها، ثم يجبن. كانت قد قصَّت شعرها وبدا وجهها أكثر جمالًا، هز كتفيه لا مباليًا وهو يطالع هبة كي يتأكد من كونها تلحظ عدم اهتمامه، ثم سألها وعمر هل يمانعان أن

يتنحى بمروة إلى طاولة أخرى لدقائق، وهما أيضًا أظهرا عدم اهتمام مُفتعلًا، أن يذهبا أو يبقيا ليست تلك بمشكلة.

* * *

خلال تجوالهما كانا قد بلغا محطة الرمل، لمحت منى مروة تجالس رجلًا خمسينيًا من خلال واجهة إمبريال الزجاجية، وغيرت اتجاهها فجأة معطية ظهرها لإمبريال وكأنهما متوجهان نحو ديليس، فظن رضوان أنها ترغب في الذهاب إليه. توقف المطر وبإمكانهما الجلوس قليلًا في الجزء الخارجي منه لاحتساء القهوة لو أحبت، وهي لم تكن تدري ما التصرف السليم، أرادت إبعاده كي لا يرى ابنته، حتى تفكر هل تخبره أم تتركها. حين كانت في عمرها، لم يكن يُسْمَح لها إلا بالذهاب إلى المعهد، كان أبوها لا يزال حيًّا، وقد أخضعها لرقابة صارمة، وكان من الأساس رافضًا لفكرة استكمال تعليمها بعد المدرسة، لولا ضغط أمها. ساورت منى مشاعر بالغيرة من تلك الطفلة التي لا تزال خارج البيت إلى ما قبل منتصف الليل، بينما هي اضطرت إلى الاتفاق مع صديقتها على أن تبيت لديها الليلة لتغطي على تأخرها في المساء بصحبة رضوان، حتى تتمكن من التأخر في الخارج للمرة الأولى من حياتها. أن تخبر رضوان يعني أن تفسد ليلتها أيضًا كما ستفسدها على مروة، لكنها تصاحب رجلًا في سن أبيها، ومنى تشعر بشيء من المسؤولية تجاه ابنة حبيبها. وقد أبدت بالفعل

رغبةً في الجلوس في ديليس، حتى تتمكن من منح نفسها فرصة للتفكير في التصرف الأمثل. لو كانت تلك الفتاة الصغيرة تمنح نفسها الحق في الالتقاء بالرجال في المطاعم ليلًا، فلِمَ وهي قد تخطت الأربعين من عمرها لا تسمح لنفسها بزيارة بيت رضوان؟ تستطيع أن تتحكم في ما ترغب فيه وما لا تريده. هل يستغل ذلك الرجل مروة؟ هل ينوي مضاجعتها، ثم تركها لمصيرها كعادة الرجال في سنه؟ أم تراه خمسينيًا متصابيًا يعاني من أزمة منتصف العمر فيتزوج مروة ثم تجبره زوجته الأولى على تطليقها؟! أليس من الأفضل أن تنبه أباها فتحمي الصغيرة، أم تتكلم معها في ما بعد؟! أغلب الظن أن مروة ستصدها وترفض نصيحتها، فهي مراهقة نزقة في نهاية الأمر، ومنى لا تعني لها شيئًا حتى تقبل منها نصيحة.

جاء النادل بالقهوة، وسألها رضوان في ما تفكر، ولما يطول صمتها، فأخبرته في نزوة طارئة بما انعقد عنه لسانها طوال الليل، تود أن تبقى عذراء لحين الدخلة. فاجأه الكلام، وشعر كأنها كانت تقرأ أفكاره، فاضطرب وقرر أيضًا مصارحتها بما تنطوي عليه نفسه:

- حبيبتي أنا عاوزك مراتي، بس مكذبش عليكي أنا عيالي أطول مني وميصحش نعملوا فرح وزفة وحوارات.

- مش عاوزة أي حاجة من دي.

- بتتكلمي جد؟

- أيوه، نسافر بس، ولا كمان مش عاوز تسافر؟

- نسافر بس؟ ده إحنا نسافر ونسافر ونسافر.

ورغب في تقبيلها على شفتيها المرسومتين بخطوط دقيقة جميلة، الآن في تلك اللحظة بالذات، لِمَ لا يتزوجان الآن؟ غدًا؟ الأسبوع القادم يبدو بعيدًا جدًا، وهو أدرك أنه يعشقها، لا يود أن يبيت ليلة أخرى في بيت أمه، لا يود أن يبيت ليلة أخرى دون أن يجاورها.

* * *

بدأ فريد كلامه مع مروة حول شكلها الجديد بعد أن قصَّت شعرها، لقد صارت أجمل، ثم ارتبك مما التقطته أذنه يأتي على لسانه. لم يحدِّثها قبل ذلك إلا كأب ناصح، وكان اتفاقهما أن يكون لها أيضًا معلمًا يعلمها صناعة المجسمات الخشبية. لكنها ابتسمت وأضاء وجهها، وهو استوثق في تلك اللحظة بالذات من مشاعره، إلا أنه تأكد أيضًا من مخاوفه، كيف سيشعر أبناؤه؟ هل كانت فيروز صادقة في تضحيتها حين ألحَّت عليه قديمًا منذ أن أصابها الشلل النصفي أن يتزوج؟! اجتاحت مروة سعادة مختلطة بالخجل، ثم أخبرته أنها تكره بيت جدتها، ما عادت تحتمل البقاء فيه لحظة أخرى، وقصَّت عليه ما كان من ناهد عصر اليوم. وحين عرض عليها أن تعيش في بيتهم، تشارك هبة حجرتها، أخبرته أن أباها سيرفض رفضًا قاطعًا. ودت أن يتوصل

وحده إلى حل منطقي آخر، ودت أن تخبره أنه بإمكانه اجتذاب هبة إلى طرفه لو سمح لعمر بخطبتها منذ الآن، ولا يصح أن تكون هي مَن يطلب يده. وهو لا يزال يفكر في أسرته، يخشى أن يبدو منه ما يكشف لها عن مشاعره دون أن يطمئن إلى إمكانية تحقيق حلم كهذا.

* * *

لم تكن منى ترغب في فرح ولا زفة، كل ما تحلم به هو ممارسة الجنس. وحين هَمَّا بالذهاب إلى بيت رضوان شعرت بنفسها ضعيفة إلى درجة أنها لن تستسلم فقط لرغباته، بل لو أنها اختلت به فستدفعه إلى مضاجعتها. وللمرة الثانية في نفس الليلة، شعرت برغبة في التراجع عما سبق ووافقت عليه. استشعرت ضيقًا وحرجًا بالغًا، أرادت أن تنتشل نفسها من تلك المشاعر، فرأت نفسها توجه رضوان نحو إمبريال، وما إن اقتربا منه حتى رأى مروة بصحبة فريد فطار عقله وأسقط ذراعها عنه ومدَّ الخُطى، بينما تجمدت هي بموقفها تدعي دهشة ليست أصيلة، وتراجعت خطوات لتراقب الموقف دون أن تراها مروة. وحين ولج رضوان إمبريال هادرًا، وكانت هبة هي أول من رأته، فقامت مهرولةً تود شرح الموقف الذي وضعت صديقتها به، سيظن أبوها أن مروة بصحبة رجل في حين أن مروة اختلت بفريد لأجلها، وحين قامت تواجهه رأته مروة أيضًا وتملكها ذعرٌ حقيقي سيطر على جسدها

كله حتى أشفق عليها فريد الذي لم يكن قد رأى رضوان قبلًا، ولم يستوعب ما يحصل إلى أن سمعها تهمس ذاهلة: «بابا!».

توجه فريد نحو رضوان بملامح صارمة، فقد أخبرته من قبل أنه يضربها وهو لن يسمح بذلك أبدًا، هبة تحاول تهدئته وفريد يسأله عن غضبه وهو يرسل نظرات مشتعلة نحو مروة وينحيهما جانبًا. لم تلتقط أذن رضوان حرفًا مما يقولون، ابنته خارج البيت حتى ما بعد منتصف الليل بصحبة غريب، يَهُمُّ بضربها ويلمح منى خارجًا ولا يحب أن تراه يضرب ابنته فتنفر منه، لكن غضبه لا يهدأ، يغلق كفه شديدًا على ذراعها ويجرها منه إلى الخارج، فريد يطلب من هبة التي كادت تخرج خلفهما أن تنتظر ويخرج هو لمواجهة رضوان، الذي ما أن لمحه خارجًا خلفه حتى استغرب امتناعه عن ضربه سابقًا، رجل في سنه يتلاعب بطفلة، ولديه الجرأة في اللحاق بهما، يسوق نفسه إلى مصيره. ورضوان قوي رغم قصر قامته، كاد يناول فريد لكمة أفلت منها الأخير، وزعق فيه أن يستخدم لسانه كالبشر، لكنه لم يتلقَ من رضوان إلا سبابًا أذهب عنه البقية المتبقية من هدوئه. هرولت منى مدفوعة بمشاعر الذنب تَودُّ أن تهدئ رضوان، في نفس الوقت الذي اشتعل فيه الغضب داخل فريد، وهو يتذكر حكايات مروة عن أبيها. وحين هم بلكمه، تنحى رضوان فتلقفت منى لكمة أسالت الدماء من أنفها.

* * *

حين ولج فارس وعبده وزاهر من باب البناية لمحوا باب غرفة البواب مواربًا، وكان يغط في نوم عميق هو وأسرته. تقدموا بخفه وقد اتفقوا قبلها على تقسيم أدوار البناية بينهم، ارتقوا السلالم في هدوءٍ شديد، وقد جعلوا هواتفهم صامتة ليتمكنوا من مراسلة بعضهم البعض دون ضجة، حين يتخذ كل منهم موقعه يرسل رمز تعبيري بعلامة الاستعداد على المجموعة التي أنشأوها خصيصًا قبل البدء. ألصق كل منهم أذنه بأحد الأبواب، بينما يتصل عبده بهاتف أميرة، وإن لم يصلهم صوتٌ انتقلوا إلى باب آخر وهكذا. حين رفع زاهر رأسه من على الباب، وهم بالتوجه للباب المجاور، فاجأه ذلك الجسد الضخم يواجهه في ظلام السلم الحالك، والبواب ضغط زر النور فأضاء سلالم العمارة جميعًا، ثم أطبق كفه على قميص زاهر وهو يزعق بصوت جهوري «حرامي!». نزل فارس وعبده مسرعين، وانفتحت أبواب عدة وخرج الناس يتفقدون ما يحصل، وحين رأى البواب فارس وعبده زعق:

- دول تلت حرامية مش واحد!

بدأ الجيران يتجمعون بينما الشباب يحاولون شرح موقفهم، هم ليسوا لصوصًا وإنما جاءوا بحثًا عن سيدة تدعى أميرة! وكان لذكر اسمها تأثير لم يتبينوا معناه، ضرب الناس كفًا بكف، وعلت أصوات استغفار، وانغلقت أبواب كانت قد فُتِحتْ، وعلت همهمات

تلعن المعاصي.

- وكمان بتجيب ردالة؟ وقد عيالها؟!

سألهم البواب مستنكرًا وهم مندهشون لا يكادون يفهمون شيئًا مما يحصل حولهم:

- وفي انصاص الليالي، ميصحش، ده كده ربنا يخسف بينا الأرض!

شرح له فارس أنه يبحث عن أمه، وأن أميرة صديقتها، ذلك كل ما في الأمر.

- صاحبتها ولا خليلتها قصدك؟ لاحول الله يا رب، وهو حد بيسأل عن أمه في انصاص الليالي بردك؟

- ماحنا مش من إسكندرية، جايين من القاهرة يا حج والجو كان شتا والأتوبيس عطل وملناش مكان نروحه.

- أنا جايب ودن صاحبك ده من على الباب، فاكر حتعرفوا تخدعوني؟

- ماحنا منعرفش فين بالضبط بيت طنط أميرة وحضرتك كنت نايم..

خاطبه فارس بحضرتك مستجديًا عطفه، وبدا له بملابسه الغارقة في البلل مثيرًا للشفقة، وأما الجيران فأغلقوا أبوابهم.

- أنت بتدور على أمك جد؟ يا ابني اسمع مني، الست اللي فوق

دي شمال، متخليش أمك تهوب عندها.

- ما هي عندها!

- لع، محدش فوق غير الولية، أنا مراقب الوضع كويس!

- جايز مخبياها، مش بتقول شمال؟

وتدخل زاهر سائلًا البواب عن السيدة، يرغب في التأكد من شكوكه:

- هي الست دي شمال ليه يا حج، عملت إيه؟

- لا حول الله يا رب، أقولك إيه بس يا ابني؟

وضرب كف بكف، وضيق عيونه هامسًا:

- الولية بتاعة نسوان!

حين تأكدت ظنون الثلاث وتصاعدت داخلهم دهشة ممزوجة بالرغبة في رؤية تلك السيدة، واستكشاف علاقة أم فارس بها، ترجى فارس البواب أن يدله على بيتها لينقذ أمه من براثنها، التقط خيطًا وأحسن استغلاله، والبواب اشترط عليهم أنه لن يبارح الباب الذي سيبقيه مفتوحًا حتى يخرجوا.

كانت أميرة مستيقظة قبل حتى أن يرن هاتفها برقم مجهول، والتقطت أذنيها كل ما جرى على السلم فقررت فتح الباب لهم وقد حصل بالفعل ما كانت تخشاه، لم تعرف قبل أن تعاود ألطاف الظهور في حياتها أنها تحبها بتلك الشاكلة، وقد تحدثتا

طويلًا خلال اليوم، حتى أن ألطاف حكت لها برغبتها في علاقة غرامية مع سيدة عِوضًا عن الرجال الفاشلين في الحب. بالنسبة إلى ألطاف، ليست تلك أكتر من فكرة مضحكة تشارك بها صديقة قديمة، وليست رغبة حقيقية ولا ميولًا جنسية. حين تمددتا متجاورتيْن، شعرت أميرة برغبة جارفة في مداعبتها، تصاعد داخلها حبٌ مختلط بنشوة عودتها إليها. لم يخطر لها على بال أن ذلك سينفر ألطاف منها ويجعلها تفر مع أول ضوء للشمس.

تركتهم يفتشون الشقة، فليس لديها ما تخشاه. كما أن موقفها ضعيف، موصومة بين جيرانها، لا حول لها ولا قوة. في لحظات كتلك تتخذ قرارًا حازمًا بالعزال، ثم تعود لتشعر أنه لا مكان في مصر يمكنها أن تكون فيه على طبيعتها، مكان لا تجد فيه أنوف الجيران محشورة في أشد تفاصيل حياتها خصوصية، لا تكون موصومة فيه بالعار والرذيلة. وناولت فارس هاتفَ أمه مؤكدة عليه أن ألطاف ليست أكثر من صديقة قديمة لها، وأنها باتت عندها ليلة واحدة، ثم تسللت في الصباح التالي بدون توديعها ولا إخبارها عن وجهتها. استجوبها فارس طويلًا يحاول استخراج منها ما لا تعرفه صدقًا، حتى يأس وانقلبوا على أعقابهم خاسرين.

8

«متخافيش»، تلك كانت رسالة فريد الأخيرة لها قبل أن يختفي كل شيء.

أخذ رضوان منها الهاتف، منعها عن الجامعة وقد اقتربت اختبارات الترم الأول لسنتها قبل الأخيرة بالجامعة، هل ضاع منها كل شيء؟ هكذا وببساطة ينقلب العالم كله فوق رأسها وتفسد حياتها. حتى الجامعة لن تتمكن من التخرج منها. أن تظل حبيسة تلك الشقة الصغيرة القذرة، إنه لكابوس، هل بإمكانها أن تهرب؟ لا زالت تمتلك نقطة قوة أخيرة هي كارت البنك، مما يعني أن لديها نقودًا شهرية تستطيع أن تعيش معتمدة عليها بعيدًا عنهم. لكنها حين تُفصِّل الأمر وتتمادى في تحليله، ترى نفسها بنتًا وحيدة، يرفض أي فندق استقبالها، ويرفض أي مالك أن يؤجرها شقة. ولو حصل ووجدت مكانًا تقيم فيه، فكيف ستذهب إلى الجامعة؟ سيأتي رضوان بحثًا عنها، يضربها أمام الشباب في الحرم الجامعي كله، فضيحة لن تتمكن بعدها من مواصلة الحياة.

لكن أتلك التي تحياها الآن حياة.

هل سيتحرك فريد؟ هل سينقذها؟

تحتاج بشدة لأن تتواصل معه، تلك هي نقطة النور الأخيرة التي تراها من أسفل الركام، المتنفس الوحيد، بضع ذرات من الهواء تحجب عنها الموت الكامل.

وكانت تراقب مريم من خلال نافذة زكي ومن فوق مقعده الخشبيّ البائس، ستمر عليها السنوات وهي جالسة هنا مكانه، تتعفن تدريجيًا، يتساقط جلد بشرتها وينمو لها شاربًا، ستكون زكيًا آخر! لا ترى لنفسها مصيرًا مغايرًا.

وتنتفض واقفة، تنفض رأسها بقوة كأنها تطرد عنها أفكارها الكابوسية، لا بد من خروج، مكالمة هاتفية واحدة تتبين منها مصيرها، ولكن كيف؟ ناهد لن تسمح لها أبدًا، بدا وكأنها تنتقم منها، وكأن رضوان منح لها رقبتها تذبحها على مهل وفي تلذذ بالغ!

وفي الشارع واحد من أطفال الجيران يربط حول رقبته إيشارب أحمر، ويقفز من نافذة بيت أهله بالدور الأرضي مدعيًا أنه يطير كبطل خارق، وبعد أن يقفز ويهبط على الطين سالمًا صابغًا نصف جسده القصير بطين الشارع، يفرض سيطرته على مجموعة الأطفال لأنه يطير، يجبرهم على ممارسة الألعاب التي يفضلها، ويجعل من نفسه رئيسًا عليهم، عاودت الجلوس وقد شتَّت المشهد أفكارها، مريم تعترض، تقف أمامه عاقدة ذراعيها في تحد، تخبره أنه ليس سوبرمان وأن بإمكانها أن تقفز مثله، بل من نافذة أعلى، ويرد الطفل عليها بلماضة: «فرجيني!»

«دخلني البيت وأفرجك!»

«لأ ماما متوافقش حد يدخل بيتنا»، يرد الطفل عليها بتحد سخيف وحجة هزيلة.

وخطرت لمروة فكرة، ثم طردتها سريعًا قبل أن تعود لتلح عليها.

مَخْرَج الطوارئ!

مَخْرَج الطوارئ يا مروة! ولن تكون التضحية بهذه القسوة، لو نجحت الخطة، لو فتحت لها مريم ذلك الباب، ثم انطلقت منه ريح طيبة، لن تتركها أبدًا في هذا القَذَر، ستنتشلها معها.

ولكن بالأمر مخاطرة.

وهي مخاطرة تستحق، ليس لي فقط، لها أيضًا.

لو تسكت ذاك الصوت المؤنب الجبان عن عقلها، لو تمد أصابعها فتقطعه بسكين حاد وتلقي به بعيدًا.

مريم!

وجدت نفسها تنادي، كأن صوتها له حياة خاصة به.

يا مريم!

شعرت أنها تنقسم إلى شخصين: واحد يعمل بعيدًا عن إرادتها،

والآخر يراقب ذاهلًا ما تفعل.

اقتربت مريم من نافذتها متسائلة، فطلبت منها أن تدخل من الباب وتجيء بأحد إيشاربات ناهد، ثم تأتي إليها.

«حخليكي سوبرمان!»

وقبل أن تمر دقيقة كانت الصغيرة تقف جوارها عند الشباك، ومروة تربط لها إيشارب ناهد ثم تضعها على حافة النافذة لتقفز، صرخت مريم على الأطفال بأنها لو تمكنت من الطيران ستحل محل الطفل وتكون هي بطلتهم، فهي ستقفز من نافذة الدور الأول لا الأرضي.

وتجمع الأطفال يراقبون ما إذا كانت ستنجح.

لاتزال مروة تعمل دون إرادة حقيقية.

لا تدري حقًا ما تفعله.

فإذا وقفت مريم على حافة النافذة، رفعت ذراعيها الصغيرتين نحو السماء، همت بالقفز، مروة لا تتمكن من إخراج صوت يردعها، قد شجعتها وانتهى الأمر، مريم تطير ثم تلتقي قدميها الصغيرتين طين الشارع، تتعرقل وتسقط، يضحك طفل الإيشارب الأحمر، وباقي الأولاد ما بين صراخ وضحك وصدمة.

مدت مروة رأسها عبر الشباك ذاهلة، ثم استعادت نفسها إلى

شخص واحد وصرخت، صرخت بهستيريه وركضت نحو الخارج وهي تخبر ناهد بصوت مرتجف أن مريم سقطت من الشباك.

لم تكن مريم تبكي على الإطلاق، السوبرمان لا يبكي.

9

كل ما في الأمر ذراع مكسور، وبضع خدوش هنا وهناك، حاولت مروة أن تعزي ضميرها وتسكته، كانت تعلم أن المسافة بين شباك زكي وإسفلت الشارع ستؤدي بمريم إلى المستشفى، لكنها لن تقتلها، وهو بابها للخروج، تتمكن من التواصل مع فريد من خلال أي هاتف؟

مريم بخير، مريم لا تبكي.

لكن مروة لم تتمكن من إجبار نفسها على تركها في المستشفى لبضع دقائق، ريثما تكلم فريد كما خططت. حتى بعد أن انضم لهم رضوان ومنى في المستشفى، عجزت على أن تبارح جانبها.

كلما سأل شخص: «إيه اللي حصل؟»، شعرت أن حافلة على وشك أن تدهسها، رغم أن أحد لن يعلم مطلقًا أنها هي مَن شجعتها على القفز.

ولا حتى مريم كانت تساورها تلك الفكرة. كانت فخورة بما فعلت، وتحس أنه قرارها، وأن شجاعتها هي الحافز.

وفي المستشفى كان الوقت يطير من بين أصابع مروة، تتحرك

مع مريم ما بين سرير الطوارئ وغرفة الأشعة، ثم عيادة العظام ليصنعوا لمريم جبيرة، في البداية أخبرت نفسها أنها ستنتظر وصول رضوان ثم تستأذن إلى الحمام فتنفذ خطتها.

لكن حين جاء رضوان كانت جوار فراش مريم، تحتضن كفها الصغير وتطمئنها بينما يعد الطبيب الجبيرة.

والوقت يتساقط، دقيقة وراء أخرى، عما قليل ستصير شجرتها البائسة عارية، وستعود إلى السجن بطفلة ضحت من أجل باب خروج لم تمر هي عبره، أين هي الآن من تلك المروة الأخرى التي كانت تنادي وتشجع وتتركها تقفز بمنتهى اليسر؟

ورضوان بالطبع لم ينفك يتهمها بالإهمال بينما منى تحاول صرفه عن لومها، تخبره أن تلك الأمور تحصل، وأنه من الصعب السيطرة على شقاوة الأطفال وتصرفاتهم المباغتة، ومروة كلما تكلمت منى نظرت لها مستنكرة، وكأنها تتساءل عن ماهية تلك الممرضة ولما صارت تراها في كل كارثة!

لم تنسَ أن منى هي مَن تلقت اللكمة في أنفها عوضًا عن رضوان، لكنها ظنت ليلتها أن تلك نزوة من نزوات أبيها، أما أن تصحبه إلى المستشفى! فالأمر يتخطى نزوة طارئة، ها هو رضوان على علاقة بسيدة تصغره بعشرين عامًا وفي الوقت نفسه يحيل حياتها كابوسًا لأنها تحب فريد! «Typical» «العادي بتاع بابا» كانت تفكر من عقل ساخن، وها هي تستيقظ داخلها، مروة الأخرى، تستيقظ وتزعق دون أن تتمكن من تحريك جسد

مروة لتلحق بفرصتها الأخيرة!

وحين سقطت الورقة الأخيرة، وهموا بالخروج من المستشفى، كانت مروة بالفعل تبكي دون حتى أن تلحظ ذلك.

وظنت مريم أنها تبكي لأجلها، فمسحت على ذراعها قائلة «مش بيوجع يا مروة».

إلا أن طبيب الطوارئ لحق بهم قائلًا أن الجرح برأس مريم يلزمه غرزتان أو ثلاث على الأكثر، الشجرة لم تكن عارية بالكامل، نهضت مروة الأخرى من داخلها تمامًا الآن، واحدة تفكر أن مريم خائفة من خياطة رأسها وأن مروة يجب أن تلزم جانبها، لكنها مرة أخرى تجد صوتها يكتسب إرادة خاصة به.

«طيب حروح الحمام يا مريم وراجعالك علطول».

شدت الصغيرة على كفها، وهي تقول «مش عاوزة أتخيط». وتدخل رضوان حاملًا مريم، مشجعًا إياها: «يلا مش عاملة لي سوبرمان وبتاع؟ حتخافي من غرزتين؟»، فاتحًا لمروة دون أن يدري، باب الخروج لتنطلق منه نحو مكالمتها الهاتفية.

10

داخل صالة بيت فريد جلس خالد وأحمد وفيروز متوزعين على مسافات شبه متساوية، مثل مثلث متساوي الأضلاع، كل منهم يتطلع إلى الفراغ وقد بدوا ذاهلين وكأن فضائيًّا قد زارهم للتوِّ في صالة بيتهم.

إذا التفت أحد منهم نحو الآخر للحظة، فالتقت عينان، لف رأسه بعيدًا بسرعة، كانوا يتجنبون تبادل النظرات كما لم يجدوا كلمات يتبادلونها.

لطالما كان فريد بالنسبة لولديه مثلهم الأعلى، لم يكونا ينظران إليه كإنسان يمكن أن تتولاه لحظات ضعف فيخطئ، وفكرة الأب بالنسبة إليهم لها قدسية ليس من السهل التغلب عليها في مواجهة لا مفر منها، يتكلمون معه بصدق عما يعتمل داخلهم من أنه جُن! وأن تلك ليست إلا أزمة منتصف العمر وعليه أن يتغلب عليها ويطرد الفكرة كلها من رأسه!

فُتح باب الشقة عن هـبة لتكسر ذلك الصمت المهيب، وصُبت نحوها ست عيون، أربعـة منـها ممتلئة بالغضب بل والحقد عليها، واثنتين بهما حـزن مـشوب بالحـنان. بعد أن قبلت رأس فيروز وكفيها، جاهدت الأخيرة على رسم ابتسامة مرتبكة، وحين لمحت

ملامح ابنيها الجامدة، والنظرات النارية التي يرمقون بها هبة، استجمعت قوتها لتنطق جملة لها معنى.

«أنا، أنا يا ولاد. دي فكرتي، أنا قلت لفريد يتجوز، مفيش عتْب على هبة، مفيش عتب على أبوكم».

انتصب أحمد واقفًا، أراد أن يزعق فيها أن تصمت؛ ألا تهين نفسها وتهينهم أكثر من ذلك بمثل هذا الهراء الذي تنطق به، وتملكته رغبة جارفة وغريبة عليه في ضرب أخته. وهبة كانت مرتبكه لا تدري بما تشعر تجاه الأمر كله، ارتباك لم يمنحها مساحة للخوف من غضب أخويها، أرادت أن تشد عقارب الزمن للخلف، فلا تسمح لمروة بدخول بيتهم، في الوقت نفسه لم تستطع أن تكره مروة أو أن تغضب عليها، لم ترى في حب أبيها لمروة نزوة أو أزمة منتصف العمر مثل أخويها، كانت تحب وتعرف جيدًا ماهية ما يشعر به فريد، تتعاطف معه وتشفق عليه من نفسه قبل كل شيء.

اقترب خالد من أحمد وقبض بكفه على كتفه مذكرًا إياه بما اتفقا عليه قبلًا، سيتحدثون مع هبة بعيدًا عن فيروز، دون شجار تلتقطه أذناها، سينهون الأمر كله دون أن يصدر منهم ما يؤذي أمهم فيسيء إلى حالتها.

قال خالد : «ماما أنتِ مصدقة إنه حيتجوز واحدة قد بنته؟ هو بس بيشفق عليها مش أكتر ما أنتِ عارفة ظروفها وعارفة حِنِّية بابا».

كانت هبة تعلم أن ما يقوله خالد ليس إلا هراء، لقد تحدث معها فريد وصارحها بالأمر كله قبل كل شخص أخر، سمعت نبرة صوته ورأت لمعة عينيه وهو ينطق باسم «مروة» يحبها بلا ريب. كما عرفت من مروة في ما بعد حديثها مع فريد كم تحبه هي أيضًا، وحتى تلك اللحظة ساعدها عمر في السيطرة على طوفان المشاعر داخلها، ألا تكسر بخاطر صديقتها الحميمة، ألا تؤذي أباها برد فعل متسرع أو أحمق.

وعادت فيروز تستجمع كلماتها، حاولت أن ترد على خالد بأنه واهم، لقد جلس فريد إليها وحدهما، حدَّثها بما يشعر، كان يجاهد حقًا لتكوين جمل سليمة، وبكى، وضع رأسه على حجرها وهو يجهش ببكاء صادق ومرير، فمررَّت كفها على شعره، ومنعت دموعها عن الانهمار ولسانها عن الكلام. وأما هو فرفع رأسه وأخذ يرجوها أن تتكلم، أن تخبره أنها تسامحه، الحقيقة أنه لم يكن يستأذنها كان أمر واقع، أخبرها أنه يحب، ولا قدرة عنده على تجاوز تلك المشاعر. لكنها رفضت بشدة أن تمنحه صك الغفران الذي يبغيه، حرَّكت أصابعها داخل فروة رأسه لتعلمه أنها تحبه، سيخطئ، سيؤذي أبناءها باختياره لطفلة في عمر ابنته يتزوجها لكنها ستحبه أبدًا، ذلك أنها أيضًا لا قدرة لديها لتجاوز مشاعرها تجاهه، وأرادت أن تقبل هفوته، أخبرت نفسها عن السنوات الطويلة التي بقى فيها جانبها يحمل هم البيت والأولاد بينما هي عاجزة، وعن رفضه الزواج من قبل؛ كي لا يجرح مشاعرها، أخبرت نفسها كل ذلك ولكنها ظلت عاجزة عن منحه ما يحتاج.

وقرر هو، رغم تأكده من خطأ تلك الفرضية، أن يعتبر أصابعها المتحركة بلطف داخل فروة رأسه هي قبول صامت، قبول على مضض، لكنه قبول. وقبَّل رأسها، أخبرها في جملة طويلة، بصوت يحمل من التوتر قدر ما يحمل من حماس طفل بزيارة وُعد بها إلى الملاهي، كم تحبها مروة وتعتبرها أُمًّا لها، وأنه أبدًا لن يجعل زواجه يلهيه عن رعايتها، وأن مروة على أتم الاستعداد لأن تعيش معهم.

يا ليته سكت، يا ليت نبرة صوته الحماسية تلك ما عبرت طبلتي أذنيها!

قد أغضبها كلامه ولم تعد تطيق رؤيته أمام عينيها، ابنتها؟ هل يظن أنها غبية! لا، تلك الفتاة اللعوب لن تعيش في ذلك البيت، هذا هو شرطها الوحيد، وحركت رأسها يمينى ويسارًا بينما ترتسم على وجهها ملامح حادة.

نظر لها متسائلًا، انتظر بصبر فارغ أن تستجمع جملتها.

«تتجوز ماشي... في البيت لأ».

لم يشعر أن بإمكانه البقاء أكثر معها لو بقى، لو تفحص ملامحها وسبر أغوار ما يعتمل داخلها حقًا، سيتراجع عن فكرة الزواج من مروة، لن يمهله ضميره، هل يستطيع التراجع الآن بعد ما حصل لمروة؟

هل يكون السبب في إفساد حياتها بعدما صارت تتعلق به

وبأسرته كقشة أخيرة قبل الغرق!

لا سلطة له على رضوان وبيته، السلطة الوحيدة التي يمكنه اكتسابها هي بالزواج من مروة ولا شيء آخر، وكان يجاهد في إجبار عقله على التمسك بتلك الفكرة دون غيرها؛ لأن صوتًا آخر كان يناضل لإفساد عليه مبرراته، ما تلك إلا حجة تتمسك بها أيُّها العجوز الخرف لتتزوج من فتاة في سن ابنتك! اصمت اصمت أراد أن يصرخ فيه، أن يخلع عنه ذاك الصوت المزعج السخيف فيمضي خفيفًا، يحصل على ذلك الدفء ويحظى بهذا القرب، منذ متى لم يلمس جسد امرأة!

شعرت فيروز أن الزمن مضى يتباطأ عليها أكثر فأكثر، لِمَ لم يأتيها الموت حتى الآن؟ عجزت عن الرد على خالد، استغرقتها الأفكار واقترب خالد منها فانحنى عليها ثم عانقها، أما أحمد فقد أشار لهبة برأسه أن تتبعه إلى الشرفة، مشت خلفه تعرج في ارتباكها وتبعهم خالد، ماذا بإمكانها أن تقول لهم وهي لا تعرف أصلًا بماذا عليها أن تشعر تجاه الأمر كله.

11

عام على اختفاء ألطاف

اعتلى فارس السلالم، وهو يطرد تدريجيًّا أطراف الانسجام إلى صحو نابع من حذرٍ.

الأمر بسيط، يقنع نفسه. سيفتح باب الشقة ويغلقه مهلًا، يخلع حذاءه وينسل إلى حجرته، ويبقى فيها قليلًا ثم يخرج إلى الحمَّام في ضجة متعمَّدة، ليبدو كمن كان في حجرته نائمًا منذ وقت طويل. أنعشته الفكرة، وشد الخُطى إلى باب الشقة يفتحه، ليجدها غارقة في النور.

في قلب الصالة وقفت ألطاف، يدها على جذعها، تلقي عليه نظرات غاضبة. أدرك أنه انكشف، فسألها عن وجبة العشاء، فأشارت ببساطة إلى المطبخ وقد تبدلت ملامحها من الغضب إلى الإحباط؛ لأنها عرفت بطريقةٍ ما أنه رسب مرة أخرى، لا يزال في الجامعة لم يتخرج بعد. أدرك في تلك اللحظة أن وجودها بحياته مؤقت، فهي ستعاود الاختفاء، من قبل دلَّته على القبر الذي دُفِنَتْ فيه أسفل فراش مروة، وأملته تعويذة تمكنه من إيقاظها. بينما يسحب جسدها الثقيل بحبال خارج القبر العميق، كانت الرائحة لا تطاق. طمأنته أن التعويذة أيضًا ستُذْهِب الرائحة، لكن عليه أن

يعلم أن وجودها لم يعد أمرًا مُسلَّمًا به. كانت تزوره كل عدة أيام في أحلامه، فتكون حية أو ميتة، تختفي ثم تعاود الظهور.

طرق رامي عليهما باب الغرفة مشددًا من ورائه أن عليهما هو وزكي المشاركة بالاستفتاء، وكلاهما لم يبدِ لرامي أي استجابة. بقى هو في فراشه، وزكي يدخن سجائره من مكانه المعتاد جوار النافذة. كان فارس فارغ الصبر، ينتظر أن يخلو البيت من إزعاج رامي وروان بالخارج، ليتمكن من الخروج دون أن يضطر إلى مقابلتهما وإلقاء التحية عليهما.

عبرت أصوات الأغاني الوطنية إلى أذنيه عبر شباك زكي المفتوح على اتساعه، وشعر أنه محاصر بين رامي في جهة، والميكرفونات الصاخبة من جهة أخرى. دس رأسه أسفل وسادتين، وجذب الأغطية فوقه في انتظار أن يمر الضجيج. وحين خلا البيت أخيرًا، خرج منه مبتعدًا قدر الإمكان عن الاحتفالات، إلا إنها كانت تقابله عند كل ناصية وشارع.

12

على الرغم مما جرَّه عليها نزولها السابق للانتخابات، إلا أن رامي استطاع إقناع ناهد بضرورة أن تشارك في استفتاء التعديلات الدستورية، إذ أنه واجب وطني لا مفرَّ لأي -مصري مهما كانت ظروفه من المشاركة به. تلك المرة سوف يصحبها بسيارة والده إلى لجنتها، ثم يعيدها إلى المنزل بعد نزهة لطيفة بالسيارة لو أرادت. وهي أيضًا كمتابعة مخلصة لبرامج التوك شو، كانت على دراية بواجبها الوطني في تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ مصر.

كما أن فكرة النزهة جذابة، ولا ينطوي الأمر على مخاطرة طالما يصحبهم بسيارة والده.

بمجرد اقترابهم من المدرسة الحكومية حيث مقر لجنتها الانتخابية، اشتعلت حماسًا وبهجة وهي ترى الناس يتراقصون على وقع الأغاني الوطنية، وأصابتها شادية وهي تنشد «أصله معداش على مصر» بالقشعريرة. عاودتها ذكريات الثورتين اللتين شاركت فيهما من شباك بيتها، وشاشتها الصغيرة. واختلطت عندها تلك الذكرى بمشاهد من مسلسل «حديث الصباح والمساء»، والناس يهتفون «سعد سعد، يحيا سعد» و«نموت نموت وتحيا مصر»، وأحمد الفيشاوي في دور حامد، حين عبرت

المظاهرات أسفل بيتهم فخرج هاتفًا بحماس «أنا قلت البلد الليلة دي مش حتنام، حيضربوهم في حارة حيطلعولهم من ألف زقاق». حامد وعامر يحاوطان راضية التي كانت قلقة من حماس ابنيها تجاه المظاهرات، تلعن الإنجليز وأيامهم، فيهتفون ثلاثتهم «مصر مصر تحيا مصر». انطلقت أغنية «تسلم الأيادي»، تصدح من الميكرفونات الضخمة المثبتة أمام بوابة المدرسة، والناس يتراقصون مبتهجين على وقعها. وحين اقترب رامي وروان يدفعان بناهد على الكرسي المتحرك تجاه بوابة اللجنة، رأتهم مذيعة من المحطة المحلية لمدينة الإسكندرية، واستوقفتهم تثني على ناهد إيجابيتها وترغب في تصويرهم. انتاب ناهد حرجٌ بالغ بينما شجعها روان ورامي بأن إيجابيتها تلك، حين تتصدر شاشات التلفاز، خليقةٌ ببث روح المشاركة والنضال الوطني بقلوب العوام.

طلبت ناهد أولًا أن تتأكد من مظهرها ففتحت لها روان كاميرا هاتفها الأمامية، وكانت تعدل من وضعية طرحتها حول وجهها، وتدس شعرها الذي كان هائشًا حوله، حين مدت لها روان صباع روچ كان بحقيبتها، فرفضت ضاحكة من حماقتها. لكن روان أصرت عليها بل وصبغت لها شفتيها بنفسها. أمام كاميرا التلفزيون، عرَّفتْ روان نفسها بأنها شاعرة وخطيبها رامي محامي، بينما ناهد جدتها، وأخبرت ناهد المذيعة بكلمات فخورة رنانة أنها هي من صممت على حضور ذلك العرس الديمقراطي، فأوقفت المذيعة التصوير وعدلت لها الكلمة، فالعرس

الديمقراطي كان العام الماضي، بينما ذلك هو الاستفتاء على التعديلات الدستورية. أعادوا التصوير، وطلبت المذيعة من روان إلقاء إحدى قصائدها، وكانت معتادة على إلقاء قصائدها أمام كاميرا هاتفها، وتشاركها مع متابعيها على صفحتها الشخصية، فاختارت قصيدة كانت قد كتبتها في حب مصر، وألقتها بأداء حماسي دافئ:

«عاشقك حبيبتي وعشقي ليكي ميتحكيش

وإن بعدت عنك عمري كله ميساويش

عاشق لناسك

عاشق مداسك

عاشق للي وطى وباس راسك

عاشق حروف اسمك

ماشي رافع فوق راسي علمك

عجزة كل حروفي تشرح اللي جوا في قلبي

والله حبيبتي مهما تهت ما الاقي غيرك جنبي

عاشق أنا نيلك

وفي ليلي بحلم بيكي ونهاري اغنيلك».

وكان للقصيدة بقية إلا أن المذيعة استوقفتها، وطلبت منهم كلمة أخيرة قبل أن يدلوا بأصواتهم، فأعلنت روان أن اليوم تجتاح

قلبها سعادتان: ثقتها بوعي الشعب واختيارهم صالح الوطن، كما أن دار النشر أخبرتها أن الطبعة الأولى من ديوانها قد بيعت بالكامل، وهما على وشك إصدار الطبعة الثانية من ديوانها «ربيع قلبي».

13

أقنعت مروة هبة بالمشاركة في الاستفتاء، تمران على لجنة هبة في شارع فؤاد أولًا، ثم تنتقلان إلى لجنة مروة. لو كانت هبة ترفض التعديلات الدستورية، فلمَ لا تشارك برأيها؟! هكذا كانت تحاول مروة إقناعها، بينما هبة ترى أنه لا طائل من إبداء رأي يخالفه ملايين البشر، ومروة كانت ترى أن من الغباء ألا تحصلا على كوبونات الشراء التي تمنحها الحكومة لِمَن يشارك في الاستفتاء. وجدتا لجنة هبة صاخبة، وقد صدحت أغنية الجسمي «قوم نادي على الصعيدي وأخوه البورسعيدي» من الميكروفون الضخم، والناس يرقصون مبتهجين، ويخرجون حاملين قواسم الشراء فيتجمعون خارج اللجنة في زحام شديد؛ ليستفسروا من المنظمين عن كيفية صرف الكوبونات. بعد أن أدْلَتْ هبة بصوتها وحصلت على الكوبون، أرادت أن تمنحه لإحدى الأسر الفقيرة المتجمهرة حول المدرسة. لكن مروة منعتها، لو كانت لا ترغب فيه فستأخذه هي. قررتا قضاء بعض الوقت في كافيه روستري قبل الذهاب إلى لجنة مروة. جلستا في الدور السفلي المطل على شارع فؤاد من خلال واجهته الزجاجية، تحتسيان القهوة وتدخنان.

أرسلت هبة صورة إصبعها المصبوغ بلونٍ أزرق، علامة على

المشاركة في الاستفتاء لعمر، فضحك منها في تسجيل صوتي أسمعتْه لمروة. كانت تحاول رفع بعض المقاطع المصورة عن اللجنة، والاستفتاء، وقواسم الشراء على صفحتها للتواصل الاجتماعي، بينما كانت مروة تراسل فريدًا، وتخبره أنها الآن بصحبة هبة في روستري، فأرسل لها قبلة افتراضية تنهدت على أثرها تنهيدة لاحظتها هبة.

- والله أنا شايفة تتجوزوا بقى وخلاص، مش قادرة أفهم إزاي بابا عامل حساب أوي كدة لزعل جدي وهو معدي الخمسين، أحِّيه يعني مفيش كدة والنبي!

- اسكتي، ده بيخليني أحبه أكتر، حنيته على أبوه دي بتحسسني بالأمان.

- لا متخافيش ياختي أبويا مفيش أحن منه.

تمكن فريد من ضم هبة إلى قضيته، حين أقنعته مروة بأن يسمح لعمر بقراءة فتحتها منذ الآن وقبل أن يتخرَّجا من الجامعة، كما صممت هبة قبل كل شيء أن تلتقي بفيروز وتتكلم معها بنفسها لتتأكد من مباركتها لقرار الزواج، لكنهم أخبروها أن حالتها قد ساءت مؤخرًا، فصارت لا تتمكن من التعبير عن مشاعرها على أية حال. وافق رضوان في التوِّ حين تقدَّم له فريد يطلب الزواج من مروة، أخبرته مروة قبلها عن وضع فريد الماديّ، فرأى في الأمر مستقبلًا ماديًّا مشرقًا لابنته، عليه أن يخطبها رسمي ويدفع مهرها منذ الآن كان هذا هو شرطه وقد دفع فريد مهرًا لم ترى

منه مروة قرشًا، استخدمه رضوان في زواجه من منى. وفريد لم يؤرِّقه غضب ولديه عليه، كل ما أزعجه كان رفض أبيه الصارم وتهديده بمقاطعته نهائيًا. وهو منذ طفولته لا يطيق مخالفة والديه، يرى جنته في رضاهما، وقد صار حبه لمروة ليس فقط معترفًا به بينهما، بل سيرة متداولة في محيط الأسرة بأكملها. لا ينفك يحاول إقناع والده، لا يعيق زواجه منها سوى رضاه. وهي بالفعل لم تكن مستاءة، لا من تعليق خطوة الزواج ولا من استيلاء رضوان على مهرها، كانت تعيش حياة كريمة بمعاش والد ألطاف، وعادت إلى الجامعة وقلبها متدفئ بحب فريد الذي صب على رأسها منذ الآن حنانًا، يدللها ويغدق عليها بالنقود والمشتريات، لقد تيقنت من كونها قد امتلكته، مهما تأخر زواجهما.

14

بعد أن خرجت منى من لجنتها وعرفت أنه ليس بإمكانها صرف الكوبون الذي استلمته بمنتجات من سوبرماركت فتح الله، إلا بعد تسليمه إلى لجنة أخرى بكارموز ثم استلام كوبون الشراء الفعلي، شعرت بالغضب، واتصلت برضوان تصب جام غضبها على رأسه، وتخبره أنها لن تقوم بذلك المشوار السخيف، فهدأها واقترح عليها أن تتصل بأمه وتسلمها الكوبون؛ لأن رامي صحبهن اليوم في سيارة والده، وهم في طريقهم لاستبدال الكوبونات التي استلموها على أية حال. ساور منى امتعاض من كون روان استطاعت أن تحصل لنفسها على عريس ممتاز، من أسرة كريمة وغنية مثل رامي، أنهت المكالمة وهي تلعن رضوان والفقر على السواء. تصاعد داخلها فضول في معاينة سيارة رامي، فاتصلت بناهد وطلبت منها أن يمروا عليها فيصحبوها بالسيارة، واتفقتا على المكان.

انضمت منى إليهم في داخل السيارة التي اكتشفت كونها فارهه، ومريحة وأنيقة. أخذت تخبئ مشاعر الغيرة المتصاعدة داخلها خلف ابتسامات زائفة. جلست في الخلف جوار ناهد، وقاد بهن رامي السيارة ليبدلوا الكوبونات، ويفرجهن على الاحتفالات في شوارع الإسكندرية. كانت حماسته بالغة بإيجابية ووعي

المصريين. طلب من روان أن تلتقط مقاطع فيديو بكاميرا هاتفها لتشاركها جمهورها على الفيسبوك، بينما يمر بهن من لجنة إلى أخرى.

15

بجوار بيت ناهد، لم تشعر مريم برغبة في مشاركة الأطفال الرقص عند اللجنة القريبة منهم. جلست وحيدة على طِوار شارعهم الضيق تصنع تمثالًا من الطين، وقد أبدت براعة في صنع المجسمات من الصلصال كلما حصلت على قطعة منه. تستطيع أيضًا استخدام ما تجده حولها من خامات في الشارع في خلق مجسمات عشوائية. قد تمر عليها ساعات طويلة، وهي مندمجة في ما تصنعه. وقد طورت منذ عودة زكي علاقة خاصة به، كانا لدهشة ناهد بإمكانهما الاندماج في حوار يطول لعدة ساعات. ومن النافذة، كان زكي مطلًّا برأسه المحاط بسحابات الدخان، يراقب المجسم وهو يتشكل بين أصابع مريم.

16

تمكن فارس من الحصول على إصبع حشيش كان في المخبأ الذي يعرفه جيدًا داخل حجرة زاهر، بعد أن أخبره هاتفيًا أنه سيمر على بيته لذلك الغرض، وكان زاهر في ذلك الوقت من الصباح في عمله، حيث أنه اجتاز عامه الجامعي بنجاح، وحصل على عمل منذ عدة أشهر. قرر فارس أن يمضي اليوم في بيت جده بالعجمي مبتعدًا قدر الإمكان عن الصخب بالشوارع.

وهنالك نفض التراب عن الأريكة التي تتوسط الصالة، واسترخى يدخن سيجارته الأولى ثم الثانية والثالثة والرابعة. حين أوشك على تدخين السيجارة الخامسة، رأى باب الشقة يُفتَح عن ألطاف، تتقدم حتى قلب الصالة ثم تتمدد على الأريكة الصغيرة المقابلة له وتطلب منه مشاركته التدخين. ناولها السيجارة ذاهلًا، فأشعلتها وقد أرخت جسدها على الأريكة، تتطلع نحو السقف. راقب أطراف الدخان تتشابك مع خطوط شبكات العنكبوت بأركان الحجرة، ثم تختفي وكأنها اندمجت معها في خيوط بيضاء رقيقة، ثم عاود التطلع نحو ألطاف، يفرك عيونه ويخبط رأسه في محاولة للفهم، تتجمد أسئلته على لسانه فلا تبلغ الوسط المعبق بالدخان بينهما.

انتهت من تدخين سيجارتها ثم التقطت موسًا من جيبها،

مررته عميقًا على معصمها وأرخت جسدها تراقب اندفاع الدماء مغتبطة. رفعت رأسها تطالع فارس فرأته فزعًا يتخبط في أرجاء الغرفة، لا يدري ما يفعل بنفسه أو بها.

أشارت له أن يقترب منها، ثم جذبته من كفيه المرتعشتين، فجلس على ركبته أمام الأريكة وقد صارت الدنيا مموجة بفعل الدموع المتجمعة على بوابات عيونه. سمعها تخاطبه، تسأله ألا يمارس فزعه حول جسدها في طور تحرره البطيء، وأن يكف هلعه عنها.

ذلك الألم بوابة خروج للألم، عليه ألا يخاف.

«أعلم حبيبي أن الدماء لطالما أصابتك بالفزع، فكر فيها كأنها حبر أحمر، أو الكثير من الصلصة، الكثير والكثير منها، هل تعرف يا طفلي الجميل؟

أنا لم أودِّع أمي وداعًا لائقًا، لطالما كانت تعطي بحب يؤلم قلبها ولا تكف.

الحق أنني ظننت بالألم سوءًا، تخيَّلته أشد وقعًا، بماذا أشعر؟

اسألني عوضًا عن ذاك الهلع!

هل تذكر جدتك؟ لا، أنت لم تعرفها. ماتت وأنا أصغر منك. قبل ليلتها الأخيرة كنت بعيدًا في الجنوب صحبة أناس طيبين، جاءوا بكوب شاي أسود مر، لا أحبه، تذكرتها لأنها تحبه، قلتُ سأبتاع

لها من السوق هدية، الأسواق هنا حلوة الألوان، أي لون تفضل يا ترى؟ لماذا أعرف لون صديقتي المفضل وحبيبي، بينما أجهل لونها؟

ها، ستهدأ لأحكي لك كيف هو ذاك الألم المحبب؟

اهدأ أولًا، كف عن الشعور بالذنب، لا تكن غبيًّا!

في السوق سرقت الألوان عيني، وتجاذبتني الروائحُ بين أركانه. عند عبده التهمت فطائر بالجبن الأبيض كانت لذيذة حد نسيان البحث عن لونها المفضل.

هل تذكر تلك الصور؟ كانت في الألبوم الذي طالما رأيتني أتصفحه، هل قصصتُ عليكَ تلك الحكاية قبلًا، تود أن تعاود سماعها مرة أخيرة؟

جيد، أنت ولد شاطر، سأخبرك الآن، كأن خيطًا رفيعًا، رفيعًا جدًا ومتينًا كخيوط الصيد الشفافة، ممدود على جزء من ذراعي يحاول جاهدًا الامتزاج بجسدي. ألم أخضر نافذ الرائحة، يشعرني برغبة في حكه. تذكرت، كأنه صفًا من عشر ناموسات تتجاور فوق ذراعي.

ليس بالقدر المتوقع، أليس كذلك؟

قال أبي: ارجعي حالًا، أمك ماتت.

كف فزعك عني، لا تزعج تلك الفقاعات السوداء في طريقها للخروج مني وإلا التصقت بك، «أنت حر!»

أغلقتُ الهاتف وفكرتُ في وسيلة للعودة إلى الإسكندرية، لكن عليَّ أولًا أن أبتاع لها هدية من السوق كما خططت، ربما طلبت من عبده أيضًا «فطائر بالجبن»، فهي لم تتذوق طعم - أسوان في حياتها!

هنالك دغدغة لطيفة الآن، لم يعد هلعك يزعج خروج الألم بقدرٍ كبير، ربما هي الخفة تحل محل الثقل بجسدي؟ «مدهش!»

في السوق تذكرتُ كلمات أبي بأنها قد ماتت، فكفت رغبتي عن التفكير في لونها المفضل. هل أعود إلي عبده وأخذ الفطائر هل تستطيع تذوقها بشكل أو بآخر في أثناء موتها؟ ربما من الأفضل أن أخذها معي؛ لأن الطريق إلى الإسكندرية طويل، بالتأكيد سأجوع.

خدر لذيذ.

أرى فزعك من خلف البحر الذي تخلق بالمكان، كأنك بهلوان يلعب بجسده لإضحاكي، فأضحك، كرضيع فتح عينيه للتوِّ، وجد الحياة مدهشة، خبأت أمه وجهها وكشفته فضحك ملء فاه بصوت محبب. هل خروج دمائي الملوثة تعيدني إلى أيامي الأولى؟ لطالما جذبتك حكاياتي عن رحلة أسوان تلك حين كنتَ طفلًا جميلًا، قصيرًا، واسع العينين، أحكي لك وأطلعك على ألبوم الصور، والليلة التالية تطلب مني إعادة الحكي، وتريد أن تتفرج على الألبوم مرة بعد مرة دون ملل.

تساءلت يا طفلي وقتها، لماذا أعود أصلًا وقد ماتت أمي؟ ألا أستكمل رحلتي، ثم أعود بعد انتهائها؟ ما الفارق؟ لقد التهمتُ

الفطائر وأنا أغزلُ كذبةً أخبر بها أبي، كذبةً سهلة. لم أجد تذكرة، سأعود بعد يومين!

أنت مضحك في تخبطك بين جدران الشقة، حائرًا وعاجزًا عن التصرف. لمَ تجعل من نفسك أحمق؟ ألم أخبرك أن الأمر جميل؟! لا يوجد ما يخيفك الآن يا طفلي، تأمل تلك الأشباح عن قرب، ستكتشف كونها أليفة!

ربما تضايقك رائحة الدماء. حسنًا، أعترف أنها مزعجة، بها نجس مقزز، لكن هذا هو المخزي من الأمر كله، أرأيت؟ لو كانت مزعجة إلى هذا الحد وأنت تراها وتشمها، خارج جسدك وليست جزءًا منك، فكيف بها وهي تجري في عروقي؟-

دم ملوث، ثقيل، صدئ.

لهذا صنعت له مخرجًا..

أراكَ الآن خطوطًا هندسية سوداء، تنفصل ثم تعود لتمتزج فتنفصل، كسائل يجهل قوامه. أمي أصلًا ليست مهتمة بالهدية وليس لديها لون مفضل، فكل الألوان حلوة تصنع منها—فساتين حلوة، نرتديها في صيف مطروح فوق المايوه، ويطير شعري وطرف فستاني حين يجري الحصان جاذبًا عربته الخشبية.

أرأيت؟ لا بُدَّ من خروج الدماء السوداء!

أراها حولي بلزوجتها، وأتمنى فقط لو فعلت الأمر داخل البانيو، مع اندفاع المياه فوقي. تبًا، لماذا لم تخطر ببالي تلك الفكرة؟

وقتها كانت الدماء ستنساب خروجًا من البالوعة الصغيرة، ولا تعود تضايق جسدي داخله ولا خارجه.

عاجز عن التصرف، طفل جميل أنت!

حائر!

مضحك!

جميل خوفك!

جميلة محبتك!

من حسن حظي أن أراها قبل خروج القطرات الأخيرة من دمائي، دمائك!

لا تستخدم الهاتف!

لا تتصل بأحد!

ششششش!

لا تفزع، نم الآن يا صغيري، نم نومًا هادئًا أبديًّا لا تتمكن خلاله الأشباح من اختراق سلامك».

* * *

عثر الجيران على جثة فارس، بعد عدة أيام، حين اقتحموا الشقة على أثر الرائحة الكريهة الصادرة منها.

تبدأ الرواية مباشرة بالحدث الرئيس؛ وهو اختفاء الأم "ألطاف". لتبدأ رحلة البحث عنها، مع الكثير من التساؤلات عن مكان اختفائها، ولماذا اختفت؟

تتداخل الأحداث وتتسارع، لتتقاطع وتتشابك خيوط العائلة، حتى وإن كانت خيوطًا واهية؛ لندرك أن "ألطاف" هي القاسم المُشترَك بين كل تصرفاتهم، فهي نقطة انطلاقهم، واختفاؤها هو نقطة عودتهم وتجمعهم من جديد.

"ألطاف" الغائبة/ الحاضرة، وأولادها وزوجها الغائبون برغم حضورهم، تمضي بهم الرواية بأحداث متلاحقة سريعة. ونجد أنفسنا أمام تساؤل غريب، واستطاعت الكاتبة ببراعة أن تتناوله بشكل مُحكَم؛ وهو كيف يكون للغياب حضور قوي كهذا؟ وهل الحضور هو حضور جسدي فقط! أم أن الغياب يجعل الحضور جليًّا، ولكننا ندرك ذلك بعد فوات الأوان؟!

أحداث تُحكم حلقاتها على أبطال الرواية كلهم دون استثناء، لتترك كلًّا منهم وحيدًا، محاولًا البحث بضراوة عن "مَخْرَج للطوارئ"، دون أمل حقيقي في إيجاده.

هالة صلاح الصياد/ تخرَّجت في كلية الفنون الجميلة عام 2006. تتقاطع أعمالها بين الكتابة السينمائية والأدبية. كتبت وأخرجت الفيلمين القصيرين "شكلها سما" و"درَّة حلوة". ترشحت هاله بسيناريو "وادي النمل" للقائمة القصيرة لجائزة ساويرس للسيناريو. صدرت مجموعتها القصصية الأولى "كل نكهات الآيس كريم" عام 2017. وصدرت الثانية "لا تتخلَّ عن أشباحك" في 2021، والتي وصلت للقائمة الطويلة لجائزة ساويرس. كما ترجمت المجموعة القصصية "نادي الغانيات المسنات" وصدرت عن دار صفصافة للنشر.



ISBN 978-977-821-239-6
9 789778 212396

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET